ذكرى عاشوراء

عِبَرٌ ودلالات

سماحة العلّامة
السيّد علي فضل الله

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

PDF مكتبة نرجس
www.narjes-library.blogspot.com

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٤م

المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢

خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

sayedfadlullah@gmail.com

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.sayedfadlullah.org

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

youtube/sayyedfadlullah

Facebook:

SayyedFadlullah

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

ذكرى عاشوراء

عِبَرٌ ودلالات

سماحة العلّامة
السيّد علي فضل الله

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

مقـــدمـــة

لغةٌ إسلاميّة حركيّة طبعت هذا الكتاب، بعناوينه، وتحليلاته ورؤاه وأفكاره، وكلّ ما يعطي الصورة الأنقى والأصفى عن الثورة الحسينية.

«ذكرى عاشوراء.. عِبَرٌ ودلالات..» لأنّها تختزن المعاني الإسلاميّة الأصيلة، الجهاد، التضحية، الوفاء، الصبر، الإيثار، حبُّ الله، الانتماء للإسلام الأصيل الذي لأجله ترخص الأرواح وتُبْذَلُ المهج..

هذا الكتاب، هو مجموعة محاضرات ألقاها سماحة العلامة السيّد علي فضل الله على منابر متنوعة في مواسم عاشورائية متعدّدة.. وهو يُبرز الروح الكربلائيّة بدروسها الرساليّة ومواقفها المضيئة وعِبَرِها التي ما زالت تتجدّد كلما تجدّد الزمن..

هذا الكتاب رؤية إسلاميّة لعاشوراء، تختزن أفقاً إسلاميّاً رساليّاً واعياً، ونهجاً إسلاميّاً أصيلاً، يؤصِّل لرؤية إسلاميّة عنوانها الحق والخير والعدل..

والله الموفق

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

محرم الحرام ١٤٣٦ هـ

ت١ ٢٠١٤م

الهجرة النبوية بين مرحلتَيْن

نلتقي في الأول من محرّم الحرام مع بداية سنة هجرية جديدة، وللسنة الهجرية معنى خاص في نفوس المسلمين كونها تربطهم بتاريخهم المجيد وبالانطلاقة النوعية لحركة نبيّهم محمّد الرسالية.

بين الميلاد والهجرة

لقد شاء رسول الله ﷺ، ومعه المسلمون أن تكون الهجرة هي بداية التقويم لتاريخهم، فمن الهجرة يبدأ عامهم، لا من ميلاد النبي ﷺ ولا من بعثته، لأنّ حدث الميلاد أو حدث البعثة على أهمّيته، لا يحمل تلك المعاني الكبرى التي حملتها الهجرة، وهي معانٍ حركيّة ونهضويّة، واستحضارها يذكّرهم بهذه المحطة التي شكّلت منعطفاً كبيراً بين مرحلتَيْن: مرحلة الصبر وتحمّل الضغوط ومرحلة الانطلاق والحركة والتحدّي. لهذا احتلّت الهجرة محطّة أساسية من محطات الرسالة، لكونها أشارت إلى قمّة معاناة رسول الله، «**ما أُوذي نبيّ مثل ما أوذيت**»[1] ذلك أنَّ المشركين وعشية هذا الحدث التاريخي، أي عشية الهجرة، أرادوا استكمال حملتهم في إلحاق الأذى برسول الله ﷺ، وذلك باتّخاذ قرار تصفيته جسدياً، في خطة محكمة تشارك فيها كلُّ بطون قريش.

(١) الجامع الصغير، السيوطي، ج ٢، ص ١٤٤.

خيار قريش الأخير

وقرار تصفيته جسدياً، كان بالنسبة لهم آخر المطاف لأنهم عجزوا عن إحداث أدنى تغيير في موقف رسول الله ﷺ.. ولم تنفع معه الإغراءات المادية وقد قال لعمّه أبي طالب يومها: **«يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه»**[1].

ولما يئست قريش من إغرائه مالياً تنازلت (بالنسبة لها) وعرضت أن تترك النبيَّ يعبد إلهه ولكن مناصفة مع آلهتها وأصنامها سنةً بعد سنة، وكان الجواب الواضح المؤكّد المكرّر الذي لا لَبْس فيه أو تردّد: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

أمام كلّ هذا، وغير ذلك من خطوات الترهيب والإبعاد، كان خيار قريش الأخير الإقدام على القتل المباشر.. وأَعدّت ومَكَرت وخَطّطت. وبالمقابل كان التسديد من الله ورعايته لنبيّه ولرسالته، فها هو عليٌّ بن أبي طالب ابن عم رسول الله، وأخوه وحبيبه، يبيت في فراشه ليفتديه بنفسه، مشكّلاً بذلك صفعة مدويّة للمشركين...

الهجرة في القرآن

الهجرة، أيّها الأحبة، هي المفصل الذي انتقل فيها المسلمون من الضعف إلى مرحلة القوة، ومن تحمّل المعاناة إلى التحدّي ومن مرحلة بناء الفرد إلى بناء المجتمع والدولة. ومن محدودية جغرافيا الحركة الرسالية، إلى انطلاقها وانتشارها في العالم أجمع، بحيث وصل الإسلام إلى أقاصي العالم ودخل فيه الناس أفواجاً.

(١) ـ الغدير الشيخ الأميني، ج ٧، ص ٣٥٩.

والقرآن الكريم تعامل مع موضوع الهجرة بتعريفات دقيقة وواضحة.. صحيح أنّه لم يعطنا تاريخاً وأحداثاً وتفاصيل، لأنّ أسلوب كتاب الله بعيدٌ عن هذا الأسلوب، بل بثّ لنا من خلال الآيات المحدَّدة ما يُعيننا على أن نعيَ التاريخ، ونعيَ الأحداث، ونعيَ الزمن كلّه. لتكون المناسبات هي محطّات لوعي الزمن، وليس الاحتفال الشكلي وحسب.

ومن هذه الآيات التي تتصل بالهجرة: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] لتشكّل مفاصل وأسساً في فهمنا للهجرة وللتحدّيات. إضافة لثناء الله على المهاجرين ثناءً عظيماً حيث عرّفهم بقوله عزّ مَنْ قال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقد ربط القرآن الكريم دائماً مصطلح الهجرة بالله، فلا هجرة إن لم تكن في سبيل الله ولله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٢٠].

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ [النحل: ٤١].

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر: ٨].

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] وغيرها من الآيات كثير..

وقد تحدّث القرآن الكريم عن المهاجرين الذين يفرّون بدينهم كدرس لكلّ المسلمين وللمجتمعات الإسلامية كافة: أن لا يقبلوا بالرضوخ للأمر الواقع، والاستسلام لظلم، بل دعاهم وفرض عليهم أن يبحثوا في كلّ الاتجاهات عن

أيِّ ساحة يستطيعون فيها ممارسة حرّيتهم، والدعوة إلى دينهم، وصناعة قوّتهم وتهيئة الوسائل لمواجهة الشرّ والظلم.

هذه هي الهجرة، اعرفوها جيداً، أن تفرّ قابضاً على دينك كي لا يُسلب أو يُصادر منك، وتسير قاصداً وجه الله، والله معك، يُعينك على أن تتجاوز كلَّ العقبات والصعوبات، وتنقلب الصورة بقدرة القادر، ففيما أنت تشعر بالقهر والمهانة وإذ بك تمتلئ عزّة ومنعة ومهابة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]..

وفي المقلب الآخر ندّد الله بأولئك الذين استكانوا لواقعهم الظالم بذريعة أنهم ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، متناسين أنّ الله معهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

إنَّ الذي يفرّ بدينه (وليس بالضرورة من المكان، بل قد يفرّ بدينه من أهله، من زوجته، من أولاده، من رفاقه، وأهل بلده، قد يفرّ ويهاجر وتحدث قطيعة إن لم تكن جسدية إنّما نفسية، ولعلّ الهجرة النفسية قد تتطلّب قوة وإرادة أقوى) ومَنْ يفرّ بدينه هو في قمة الإيمان، ولديه وضوح البصيرة، وامتُحن ونجح وسيكون الله معه. ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«من فرّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من الأرض، استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد»**[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«إذا عُصيَ الله في أرض أنت فيها فاخرج منها إلى غيرها»**[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٣١ ب٦.

(٢) م. ن: ص٣٥ ب٦.

معانٍ أخلاقية للهجرة

وهذا الحديث يُدخلنا في المفهوم الأوسع، وفي معنى الهجرة لا في شكلها، لأنّ الهجرة في المفهوم الإسلامي، ليست تكليفاً خاصّاً أُمر رسول الله بممارسته، بل هي في البُعد المعنوي تتمثّل في هجرة كلّ ما يكره الله من الباطل والسوء والفواحش والمحرَّمات، إلى كلّ ما يحبّه الله من الحقّ والصلاح والخير، ولو اقتضى الأمر هجرة الارض، فليكن، ولكن لا معنى لاحتفالنا بالهجرة إن لم نفهمها نحن المسلمون هجرة عن المعاصي، هجرة عن الذنوب، هجرة عن العيوب الأخلاقية الموجودة فينا، هجرة عن تبلّد الأحاسيس تُجاه إخواننا، هجرة عن تحسّس آلام المسلمين، هجرة الأذى لمن حولنا، والأذى لخلق الله وللحياة كلِّها..

إنّ إصلاح كلّ عيب ـ أيها الأحبة ـ يحتاج إلى هجرة.. على مستوى النفس، عندما تأمرنا ـ هذه النفس ـ بسوء، وعندما تجرّنا إلى الطريق الملتوي.. الإصلاح والتصحيح على مستوى إيمان الفرد يبدأ من هنا، من أن تنفصل عن نفسك، وتراقب كلّ نواياها، أن تهجرها وتعاقبها وتؤنّبها، لأنّها تأخذك إلى ما لا يريده الله.. وإذا تمرّس الإنسان وتمكّن من فعل هذا مع نفسه.. فليطمئن أنّ باستطاعته أن يفرّ بدينه من أيّ عوامل خارجية ضاغطة عليه، تُخسره إيمانه أو عزّته، لأنّ العزّة هي الأساس والعزّة بغير الله افتقار وذلّ..

استلهام الحدث النبوي

.. وتُطِلُّ علينا الهجرة والمسلمون يعانون التمزّق والفُرقة، تتلاعب بهم الفتن والأهواء، ويسيرونَ بالاتجاه المعاكس لهجرة نبيّهم.. النبي هاجر من أجل وحدتهم ورصّ صفوفهم في مواجهة عدوّهم، وهم اليوم يتفرّقون، ويفرّون للأسف باتجاه أعدائهم، يستقوون بهم على بعضهم البعض، أو ينتظرون أن

يُصلحوا بينهم، وهيهات أن يُصلِح الذئب بين الحملان.. وإذا أصلح فبعد أن يَفنى الغنم أو يكاد، كما نشهد ونتوقّع.. الرسول هاجر من أجل أن يرفع الظلم عن الضعفاء ومن أجل أن يساوي بين فقير وغنيّ.. وترى المسلمين اليوم تزداد الهوّة بينهم، بين ثروات مضيّعة وأفواهٍ جائعة ..

كم يحتاج المسلمون اليوم (الذين أخذت دولهم إجازة ليحتفلوا بذكرى الهجرة) ليتخلّصوا من هذا الترهّل الاجتماعي والاقتصادي والأمني.. وكم يحتاجون لكي يمتلكوا وضوح الرؤية ووضع الاستراتيجيات، وقد فعلها نبيّنا ﷺ منذ ١٤٣٥ عاماً، فعمل بهدوء وروية وخطّط لنشر الإسلام وعمل ليكون قويّاً، ولكنّنا فرّطنا وضيّعنا وأبقينا مناسبة الهجرة مناسبة تاريخية تقليدية لا تدخل الوجدان ولا تربّي ولا تذكّر..

استغفار وعمل

أيّها الأحبّة.. في ليلة الهجرة ليس من شيء أفضل من الوقوف بين يدَيّ الله في جلسة مطوّلة نفتح بها قلوبنا وأرواحنا عليه، ونغسلها بدموع التوبة والخشية، نعترف بما اقترفناه من ذنوب ونستغفره ونطلب منه الهداية والتوفيق في الأعمال في السنة القادمة.

ونستفتح السنة في أول يوم فيها بهذا الدعاء الذي علّمنا إياه النبي الأكرم، نقرأه، نتدبّره ونعي معانيه: «**اللهمّ أنت الإلهُ القديم، وهذه سَنَةٌ جديدة فأسألُك فيها العصمةَ من الشّيطان والقوّةَ على هذه النفس الأمّارة بالسوء، والاشتغال بما يقرّبني إليك يا كريم يا ذا الجلال والإكرام... اللهم اجعلنا خيراً ممّا يظنّون، واغفر لنا ما لا يعملون ولا تؤاخذنا بما يقولون، حسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكّلنا وهو ربُّ العرش العظيم. آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا، وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب، ربّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنتَ الوهّاب**».

ونستهدي بالحسين عليه السلام

وفي بداية المحرّم من كلّ سنة هجرية، نستهدي بالحسين وأصحابه وأهل بيته عليهم السلام الذين نعيش معهم أيام عاشوراء، لنتعلّم منهم كلّ قيم الصبر والثبات والوفاء والحرية والوحدة والتضحية ونستعيد معهم هجرتهم إلى الله، هجرتهم هذه التي دفعوا فيها دماء زكية روت أرض كربلاء وشعارهم «إلهي تركتُ الخَلْقَ طُرّاً في هَواكَ».

* * *

ثورة الحسين عليه السلام:
الصَّدمة الّتي أخرجت الأمَّة من نفق الصّنميَّة

عشيَّة نهضة الحسين عليه السلام، كانت ظروف الأمَّة تبعث على اليأس من إمكانيّة أيّ تغيير، إذ كانت تسود حالة من اللامبالاة تجاه القضايا العامَّة، وكان هناك استعداد لتقديس كلّ ما يصدر عن السّلطة، باعتبار أنّ أمير المؤمنين هو رأس السّلطة.

معجزة التّغيير في الأمّة

كان إخراج الأمّة من نفق هذه الصنميّة يحتاج إلى معجزة، إلى زلزال، فلا مكان هنا للكلمة، فالتّغيير الّذي كان يَحْدُثُ داخل الأمّة هو تغيير نحو الباطل، وهو تغيير بدأ يُكرَّس مذ وقف أبو سفيان يعلن مشروع بني أميّة، بعد أن وصلت إليهم الخلافة: «يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالّذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب ولا جنّة ولا نار ولا بعث ولا قيامة».

لقد مارس الحكم الأمويّ بخديعة ومكر ودهاء عمليّات غسل الأدمغة، وكانت تنجح ببساطة، لأنّ النّاس كانت تتخلّى عن مسؤوليّاتها بسهولة. لماذا؟ لأنّ المجتمع الذي يبيع دينه بدنياه كرهاً أو طوعاً، طمعاً أو شهوة، لا يمكن أن يمارس فيه الأفرادُ مسؤوليّاتهم ويتحمّلوها.

معاوية وغيره من الحكّام الأمويّين لم يكن ليتردّدوا في استعمال السّيف لإسكات الأصوات الّتي تحاول أن تدلّ على مواطن الانحراف. هكذا قتل معاويةُ

حِجْرَ بنَ عديّ وعمرو الخزاعي وأصحابهما، رغم كونهما من صحابة رسول الله ﷺ، لأنّهما رفضا أن يبيعا كلمة الحقّ بحفنة من الدّنانير.

مالك السكوني غضب لمصرع حجر وأصحابه، وخرج يهيّئ للثّورة، فأسرع معاوية وأرسل إليه مائة ألف درهم، فأخذها وطابت نفسه.

ومعاوية، ويزيد من بعده، راحا يعملان على أصحاب النّفوس الضّعيفة، وعلى أصحاب القناعات المهتزّة الّتي لا تقف على أرض صلبة. ويبدو أنّها كانت الشريحة الأكبر في ذلك الوقت. لقد شُخّص «الدّواء» لأزمة الأمّة، وعُرف مكمن الدّاء في جسدها وروحها، إذ عرف معاوية كيف يفقد النّاسُ الإحساسَ بكرامتهم بعد أن غرسها الإسلام فيهم، وجعل الأمّة مجتمعات مسكونة بالطّمع والأنانيّة والخوف، والسّعي في طلب الدّنيا، الدّنيا الّتي طالما حذّر منها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

مثلاً في ذلك الوقت، بدأنا نسمع بفكرة تحييد الدّين عن الدنيا: الصّلاة خلف عليّ أقوم، والطّعام عند معاوية أدسم، والجلوس على التّلّ أسلم. وفي ما بعد: السيوف في مكان والقلوب في مكان آخر... وهكذا أُفرغَ الحُكم الأمويّ الإسلام من محتواه، ووظّف لهذه الغاية رواة أحاديث، ومفسّرين، ووعّاظ سلاطين، يغيّرون ويبدّلون، ويُروّجون ما ينتج من أحاديث مزوّرة، ومن أخطر هذه الأحاديث، ما رُوي كذباً عن النبيّ ﷺ أنّه قال: من رأى من أميره شيئاً يكرهه، فليصبر عليه، فإنّ من فارق الجماعة شبراً ومات، مات ميتة جاهليّة.

صدمة تقلب المشهد الإسلاميّ

هذه حال أفراد الأمّة قبل كربلاء.

أمّا بعد كربلاء فالحال ستتغيّر، لأنّ دماً جديداً سيُضخّ في الشّرايين، صدمة جديدة حدثت في المشهد الإسلاميّ والمشهد الرّساليّ ككلّ، وفي تجربة الحكم

الإسلاميّة، هذه التجربة الّتي كانت ستُشرِعُن فسادَها، لولا أن ثار الحسين الّذي سحب عنها بساط الشرعيّة..

اسمعوا ما كان الإمام الحسين عليه السلام قد كتبه إلى أشراف البصرة:

«أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ السنّة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت... وأسير بسيرة جدّي وأبي، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ»[1]، فالقضيّة لم تكن محدودة بشخص الحاكم، إنّما بنهجه كلّه.

بعد كربلاء، وإذا نظرنا إلى الواقع، نرى أنّ التّاريخ سجّل لنا بعض المواقف الّتي فهمت المأساة التي صنعها الأمويون، إضافةً إلى أنّ المجرمين الذين كانوا في الحكم، كان شغلهم إسكات أيّ حسينيّ أو أيّ شخص يمتّ إلى عليّ بصلة، أو كلّ مَنْ يتحدّث بمنطق رسول الله الإصلاحيّ الّذي استلهمه الحسين عليه السلام.. فالجماعة صار لديهم منطقهم الخاصّ، وفلسفتهم الخاصّة الّتي تقوم على القسوة والظلم والتعدّي. يذكر المؤرّخون أنّ السّجون، وخصوصاً في الكوفة والبصرة، امتلأت بمن لهم مواقع تأثير من محبّي آل البيت عليهم السلام.

المهمّ بعد كربلاء، أو بالأحرى خلالها، حصل انقلاب الحرّ الرّياحي على نفسه، إذ آثر أن يتخلّى عن الإمرة والجاه والمنصب والمال وملذّات الحياة. وكم عانى وهو يخيّر نفسه بين موقفين: موقف يودي به إلى النّار، وآخر يرفعه إلى مصاف العليّين. اهتزّت قناعات الحرّ للحظات، وعندما استعاد توازنه، وقف على أرض صلبة.. كانت إرادته صلبة، وقد حرّرتها كلمات الحسين ومواقف الحسين من عبوديّتها، فخلع عن نفسه ثوباً ما كان يليق بروحه، وبدّل موقعه.

في نظر البعض، اختار الحرُّ الصّفقة الخاسرة، وهذه هي حسابات المنافقين

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٢٨٠.

والانتهازيّين وصيّادي الفرص، وهذه حال أحد سادات الكوفة ورجالاتها، ويدعى شبث بن ربعي.

تصوّروا أنّ شبث كان ممّن كتب للحسين عليه السلام بالقدوم إلى الكوفة، لكن ظهور ابن زياد في الكوفة، واستشهاد سفير الحسين إلى أهلها، دفع شبث إلى أن ينقل البندقيّة من كتف إلى كتف. وفي الوقت الّذي كان الحرّ الرّياحي يختار الجنّة على النّار، كان شبث يقف على رأس أربعة آلاف مقاتل لمحاربة الحسين، كان شبث يلخّص حال الأمّة عشيّة كربلاء، أمّا الحرّ، فقد جسّد الموقف الّذي ستصنعه ثورة الحسين عند مَنْ يخرجون من شرنقة خوفهم وتردّدهم مردّدين: «لبّيك يا حسين»، تلبية حقيقيّة واعية ومدركة لحجم التّضحيات.

ومن المواقف الّتي وصلتنا عن عبدالله بن عفيف الأزدي الغامدي، وكان كفيف البصر، وكان في عداد من كان في قصر ابن زياد، لرؤية «الخوارج» بزعمهم ـ وهم أهل البيت عليهم السلام الذين دخلوا أسارى إلى القصر ـ الّذين انتصر عليهم جيش أمير المؤمنين ـ يزيد حسب زعمهم ـ، حسب الأبواق والدعاية الأمويّة آنذاك..

وبدأ العرض بخطاب لابن زياد، حاول أن يمرّر فيه كذبة تخدع النّاس، إذ قال وهو يشير إلى رأس الحسين الّذي وُضِع أمامه: «الحمد لله الّذي أظهر الحقّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب الحسين وشيعته».

لم يستطع ذلك الرّجل (الأزدي الغامدي) أن يتحمّل افتراءات ابن زياد. كانت أخبار كربلاء، وكلمات زينب في أسواق الكوفة قد بدأت تفعل فعلها. فيصرخ الأزدي في وجه الطّاغية: «يا بن مرجانة، إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، يا عدوّ الله، أتقتلون أبناء النبيّين، وتتكلّمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين؟».

ارتدادات الثّورة

وبعد ثلاث سنوات من ثورة كربلاء، كانت الثورات تندلع وتتوالى، وتهزّ العروش. وصار نهج الحسين ملجأً وقبره مزاراً لكلّ مَنْ يريد التبرّؤ من الظّلم والطّغيان. وفي عهد المتوكّل العباسيّ، تم هدم قبر الإمام، وحُرِثت الأرض حوله، لمحوِ أيّ أثر له. لقد خاف المتوكّل من ظاهرة نموّ زيارة الحسين عليه السلام... وكم كان واهماً، فقد زاد التفاف النّاس حول الحسين، لأنّه جعل مقامه في كلّ قلب يتطلّع إلى الحقّ والحريّة والعدل والحبّ والكرامة، وَصْيحة عبدالله بن عفيف الأزدي لم تكن الصّيحة اليتيمة الّتي أسقطت حاجز الخوف، فالحسين تحوّل إلى رمز، اخترق الزّمان والمكان، وصار له الامتداد الإنساني الّذي يُلهم الأحرار والمفكّرين.

لقد نافس الحسين سُلطةَ الأمويّين شهيداً أكثر بكثير ممّا نافسهم وهو حيّ، ودم الحسين بات يُرعب الطّغاة، بعد أن تحوّل إلى نداء لا يكفّ عن التّذكير: حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل.

وإنّنا نرى اليوم ما فعلته كربلاء في وطننا (لبنان)، كانت الزّاد الرّوحيّ لمقاومة العدوّ، وما فعلته من قبل في الثّورة الإسلاميّة في إيران، حيث أعلنها الإمام الخمينيّ: «كلّ ما لدينا من عاشوراء»...

دروس من كربلاء

مرّت ذكرى عاشوراء وتركت لنا المسؤوليّة الكبيرة، والدّروس الكثيرة، أذكر منها ثلاثةً:

الدرس الأوّل: أن لا تثق بأصحاب القناعات الرماديّة الّذين يقفون بين بين، أن تتنبّه إلى المتذبذبين، لأنّهم قد يخذلونك في أيّ وقت وعند أوّل امتحان. وفي المقابل، لا يمكنك أن تتخلّى عنهم، هم ساحة رسالتك، فالشّطارة ليست

بأن تجذب إليك من هو ثابت وراسخ، فهذا لا خوف عليه، إنّما عليك بالتّائهين الّذين يتيهون عن طريق الحقّ.. هؤلاء يحتاجون لتمدّ إليهم يد الوعي والحوار والانفتاح والاستماع، وإلا كانوا قنبلة موقوتة يُشرَون بأيسر ما يكون، ويبدو أنّهم كثرٌ في كلّ عصر وزمان، وهم هدف لكلّ ساعٍ بالفساد والخراب والضّلال..

والدّرس الثّاني: هو أن نعمل على إحياء النزعة الإنسانيّة في الإسلام، وإبعاده عن النزعة القبليّة والعشائريّة والشكليّة، ومحاربة التعصّب بكلّ أشكاله، ورفض كلّ أشكال العبوديّات، إلاّ العبودية للّه الواحد الأحد، ومحاربة الظّلم في كلّ مراحله...

والدّرس الثّالث: إنّنا في حياتنا كلّها، في مشاريعنا ومشاريع الأمّة، لا نراهن على الكميّة والعدد أبداً، فأصحاب الحسين كانوا قلّة، كانوا سبعين وَأزيَد قليلاً مقابل الآلاف. ثلّة من الأصحاب الثّابتين الرّاسخين كانوا من طينة أبي ذرّ وسلمان، والمقداد وعمّار... كما كان من قبل أصحاب الرّسول في بدر والأحزاب وخيبر، هؤلاء التفّوا حول الحسين وشاركوه ملحمته، فدخلوا التّاريخ، فيما الكميّة والعدد الكبير كلّه، أين هو اليوم؟ هل يذكرهم أحد إلا بالسّوء؟ أين الحسين وأين يزيد...؟

هذا هو السّؤال الأساس، وهذا هو جوهر القضيّة.

السلام على الحسين سبط المصطفى ﷺ وابن المرتضى والزهراء عليهما السلام.

* * *

أسباب الثورة

تاريخ عاشوراء وسبب ثورة الحسين جليّان. باختصار، إنّ الحسين عليه السلام رأى الانحراف في جسد الأمّة ـ وهذا ما لم ينكره أحد ممّن قرأ وفهم ووعى تاريخ تلك المرحلة ـ يرى الحسين ذلك، فيسْعى لإصلاحه، لا من أجل أن يحقّق جاهاً ولا فخراً ولا موقعاً.. وهل يحتاج إمام قام أو قعد، وسليل النبوّة، وسيّد شباب أهل الجنّة، وخامس أهل الكساء، هل يحتاج إلى مجد زائل، وإلى موقع لا يبقى ولا يستمرّ؟!

في هذه الذّكرى أيضاً، تختلط المشاهد، ففيها يبرز مشهد السموّ والارتقاء الإنساني المليء بالعنفوان والبطولة، وقد تمثّل بزينب عليها السلام وهي تقرّع كبرياء يزيد، وهي في حالة عاطفيّة ونفسيّة وجسديّة لا يستطيع أمامها أحد من البشر إلا أن ينهار بعد رحلة طويلة من السبي ووضع رأس أخيها الحسين عليه السلام أمامها، إلا أنّ زينب عليها السلام حلّقت بإنسانيّتها، وتسامت، وقالت ليزيد: «**فكِد كيدك، واسعَ سعيك، وناصِب جهدك، فإنّك لن تمحو ذكرنا، ولن تميت وحينا**»[1]...

وفي المقلب الآخر، كانت الصّورة مختلفة، كان المشهد مغايراً، مشهد السّقوط والانحدار والانهيار المريع الّذي أصاب الأمّة الإسلاميّة آنذاك، فيزيد الفاسق الشّارب للخمر، يُكرَّس بعد هذه الفاجعة خليفةً للمسلمين وأميراً عليهم،

(١) الاحتجاج، الطبرسي ج٢ ص١٣٠.

بعد أن تخلّص ممّن كان يشكّل وجودُه خطراً عليه.

إنه لمشهدٌ مؤلم أن نرى الأمّة الّتي أفنى رسول الله ﷺ حياته لأجلها، يبلّغ شرع الله، ويركّز أحكامه، ويصنع إنسانه، ويفسّر قرآنه، من أجل تثبيت الاستقامة وإحقاق العدل.. أن يكون خليفة المسلمين أوّل من يجاهر بالحرام؛ يشرب الخمر، يتجاوز حدود الله، يظلم ويفجر، ويصل به الحدّ لطلب المبايعة من الحسين عليه السلام، يريد بكلّ صلافة أن يأخذ شرعيّته من ابن بنت رسول الله ﷺ.. كان مراهقاً فاسداً، أراد أن يحظى بأن يكون هو الوصيّ على الدّين والقيم والمبادئ؛ أيّ سقوط في هذا للأمّة، وأيّ نكسة وكارثة كادت تحصل، لولا أن منّ الله على الأمّة بالحسين عليه السلام ليقف موقف البطولة والفداء، ليعطّل مشروع انحراف كاد أن يطيح بكلّ مكتسبات الرّسالة والدّعوة الإسلاميّة والعودة بالأمّة إلى جاهليّتها؟!

عندما غادر رسول الله ﷺ الحياة، كان تركيزه على أنّه تارك في النّاس صمّامَي أمان، ما إن تمسّكوا بهما لن يضلّوا بعدهما أبداً: كتاب الله وعترته أهل بيته.. ولكنّ يزيد، ضرب عرض الحائط بكتاب الله وأحكامه وشرعه، وعطّل الحدود، وها هو يكمل صوب صمّام الأمان الآخر؛ أهل بيت النبوّة، فشهد التّاريخ أبشع مجزرة، ليس بحقّ أفراد فحسب، إنما بحقّ أمّة بأكملها، وهو الجرح الّذي أصاب وجدان الأمّة، وسيظلّ ماثلاً إلى يوم الدين.. والأمّة جميعها معنيّة بهذا الجرح، وعت ذلك أم لم تع، صرّحت به أم لم تصرّح.. توقّفت عنده أم لم تتوقّف، شاءت أم أبت، فالحسين عليه السلام هو سبط رسولها، هو منه ريحانته، والرّسول سيطالبها بموقفها من الدّم الّذي سفك في كربلاء، وسيطالبها بموقفها مما أصاب دينه، وسيطالبها بصمتها...

المشهد، أيّها الأحبة، على مستوى الواقع الإسلاميّ كان قاتماً ومظلماً.. وحدهم أهل بيت النبوّة وموضع الرّسالة ومختلف الملائكة، شكّلوا نقطة الضّوء ومبعث الأمل، ليس لمجرّد القرابة، بل لأنّهم كانوا الملاذ لكلّ طالبي حقّ وعدل

واستقامة، ولكلّ من أراد أن يرى كيف يتحرّك الدّين ويتمثّل إنساناً في ساحة الحياة...

ثورة ضدّ صمت الأمّة

لقد كان الحسين عليه السلام واعياً منذ انطلاقته لحجم الدّور المنوط به، فهو لم يثر فقط ضدّ شخص يزيد، بل ضدّ صمت أمّة، وخذلان رسالة، وعفن أصاب القلوب، وصدأ أصاب العقول، وحمية انطفأت، وغيرة جُيّرت، لأجل كلّ هذا ثار الحسين عليه السلام، وفي استشهاده، أراد أن يهزّ كلّ هذا الواقع من ركوده...

نعم، ما دفع الحسين عليه السلام إلى أن يأخذ قراره بالسّير في مشروع الثّورة حتّى النّهاية، وهو يدرك حجم المخاطر والتّضحيات، أنّه لم يكن ينظر إلى حاضر الأمّة فقط، بل إلى مستقبلها أيضاً، كان يريد أن يوقظها من سباتها، وأن يخرجها عن صمتها...

ويذكر المؤرّخون كيف عمل الأمويّون بجدّ لتثبيت هذا المنطق في الأمّة، منطق الصّمت والقبول بالواقع، ولم يوفّروا أيّ وسيلة لذلك...

أوّلها: ترسيخ قناعات خاطئة تتّصل بالعقيدة، زرعوها وحوّلوها إلى عقائد، مثل: المكتوب لا يمكن أن نقف في وجهه، والله قدّره. نعم، الأمويّون هم مَنْ روّجوا لفكرة الجبريّة، فسادَ منطق أنّ الأعمال كلّها، حتّى السيّئة، هي بإرادة الله، ومَنْ يقف في وجهها يعترض على مشيئته، فسكت النّاس..

ثانياً: ترويج الأمويّين لروايات ابتدعوها عن عدم جواز الخروج على الحاكم حتّى لو كان جائراً، ومن يخرج عليه فهو ظالم وباغٍ وباعث للفتنة، كما شهدت هذه المرحلة تزويراً ودسّاً لأحاديث كثيرة نُسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله..

ثالثاً: المال السياسيّ الّذي تمّ من خلاله شراء الضّمائر والمواقف والسّكوت

عن الحق، وقد اشتهر الأمويّون بإغداق الأعطيات على جماعتهم، وجذب المعارضين إليهم، ولهذا عمّ الفساد واستشرى.

رابعاً: اللّجوء إلى السّيف والعنف والقمع والبطش وصولاً إلى قطع الألسن، ما زرع الخوف والرّعب في النّفوس والقلوب...

لقد استطاع الأمويّون أن يحوّلوا المجتمع الإسلاميّ من مجتمع يعيش القيم والمبادئ والتّضحية من أجلها، إلى مجتمع خانع ذليل، همّه السّلامة والدّينار، مجتمعٍ يُباع ويشترى.

وتذكر سيرة عاشوراء، كيف أنّ عبيد الله بن زياد، والي يزيد على الكوفة، عندما أراد أن يواجه حركة مسلم بن عقيل، وقف أمام النّاس وهو يحمل صرّة النّقود بيد، والسّيف باليد الأخرى، وقال: المال لمن يترك مسلم بن عقيل والولاء للحسين، والسّيف ينتظر من يقف في وجهي. عندها راحت المرأة تخذل ابنها وزوجها، والزّوج يخذل زوجته، حتّى تفرّق النّاس خوفاً وطمعاً..

لهذا كلّه، وجد الحسين عليه السلام أنّ واقع الأمّة بات يحتاج إلى زلزال، إلى صدمةٍ تهزّ كلّ هذا الذلّ وهذا الخنوع، وأنّ عليه أن يحوّل المسار ويقلب الصّورة، فكانت عاشوراء بكلّ آلامها وآمالها ومآسيها وبطولاتها..

نهجُ خَطَّهُ الحسين عليه السلام

لم يستطع الحسين عليه السلام في كربلاء أن يحقّق نصراً عسكريّاً، ولم يقدر على تحقيق هدفه بإسقاط الحكم وإعادة الحقّ إلى نصابه، لكنّ الحسين عليه السلام استطاع أن يرسم للأمّة منهجاً، وهو أن ترفض الظّلم والطّغيان، في أيّ موقع كان الحاكم، سواء كان كبيراً أو صغيراً، أن ترفع صوتها في وجه ظالمها.. بالكلمة أو الموقف أو المواجهة، فلا وجود في منطق الحسين عليه السلام للأكثريّة الصّامتة، الأكثريّة الصّامتة في موقع الظّلم والطّغيان هي شريكة للظّالم بسلبيّتها..

لقد أراد الحسين عليه السلام للأمّة أن تستيقظ، فإن لم تستطع أن تسقط الظّالم، فعلى الأقلّ أن تنخر في عرشه، من خلال عدم إعطاء الشرعيّة له، وأن لا تدعه يرتاح، وتقلقه ولو سبّب لها آلاماً وتضحيات.

لقد علّمنا دم الحسين عليه السلام، وعلّمتنا مواقفه، وآلام أهل بيته وأصحابه وجراحاتُهم، أن نكون معنيّين بكلّ مفردات واقعنا، أن لا ننأى بأنفسنا عمّا يجري من حولنا، أن لا نسكت على ظلم ظالم مهما كان، أن لا نبيع ديننا أو مواقعنا ومبادئنا لحساب دنيا فانية ونعيم زائل.

في ذكرى أربعين الحسين عليه السلام، نستعيد كلّ قيم البطولة والعزّة والفداء، نستعيدها وعيوننا عبرى وقلوبنا حرّى...

ونحن ـ رغم بعد الزّمن ـ سنبقى نُحيي أمرهم، ونورّث أجيالنا محبّتهم والسّير على طريقهم، وسنظلّ نتوجّه بقلوبنا وعقولنا لزيارتهم.

السّلام عليك يا أبا عبد الله، السّلام عليك يا بن رسول الله، السّلام عليك يا بن أمير المؤمنين، السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء، السّلام عليك وعلى الأرواح الّتي حلّت بفنائك، وأناخت برحلك..

السّلام عليك ما بقيتُ وبقي اللّيل والنّهار، أشهد يا مولاي أنّك أقمت الصّلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصاً حتّى أتاك اليقين.

* * *

عاشوراء الحسين عليه السلام:
التَّضحية بأبهى صورها

إنَّ من أبرز الدّروس الّتي ننهلها من معين عاشوراء، ودروسها الكثيرة، درس التّضحية.

لماذا ضحّى الحسين عليه السلام؟

هذه التَّضحية الّتي تجلَّت بأبهى صورها وأجلّها، شهادةً للحسين وأصحابه وأهل بيته، وسبياً لنسائه، هذه التَّضحية الّتي لم يكن هدف الحسين منها الحصول على دنيا أو مطمع شخصيّ، بل كان هدفها إصلاح أمَّة جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله، أن يعود الحقُّ إلى نصابه، ويعود الحكم إلى الّذين يستحقّونه.

لقد غيَّر معاوية وجه الأمَّة؛ رشى، واشترى الضَّمائر، ومزَّق وحدة الأمَّة، وأعاد إليها العصبيَّة الجاهليَّة، وصبغ النَّاس بصبغته، حتَّى ساد بين النَّاس قانون النّفعيَّة. وصار مبدأ كلّ إنسان في الحياة «اللّهمّ نفسي»، إلاّ القِلّة، الّتي كانت تأبى الانقياد، فكانت تدفع حياتها وكرامتها ورزقها ثمناً لمواقفها.

وجاء يزيد، وهدم كلّ بنيان إسلامي رائد؛ فهو فاسق، فاجر، سكّير، يجاهر بالكفر، وبعدائه لكلّ من يمتّ إلى أهل هذا البيت النبويّ بصلة.

لقد كان همّ الحسين عليه السلام من خلال تضحيته، أن لا يثبّت شرعيّة حاكم مثل يزيد، أن لا يُطاع الشّيطان ويُعصى الرّحمن، أن لا تتبلّد مشاعر النّاس ويتعاملوا مع المنكر كأنّه أمر عاديّ. كان يريدهم أن يغضبوا لرفض المنكر الّذي حدَّدته شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله، تماماً كما كان يفعل المسلمون الأوائل...

هذه الرّوح، عبَّر عنها كلّ جمهور كربلاء، في ليلة عاشوراء، جمعهم الحسين عليه السلام ليطلب منهم، وقبل بدء المعركة، أن يستفيدوا من ظلمة اللّيل لينسحبوا من أرض المعركة، وأن يذهب كلٌّ منهم إلى بيته وعائلته، وإذا كانوا عاهدوه وبايعوه على القتال معه، فهم في حلّ من بيعته، ليس عليهم من ذمام.

وقف حينها أحد أصحابه ليقول: أنحن نتخلّى عنك، وبِمَ نُعذر إلى الله؟!.

حادثة أخرى تمثّل نموذجاً للتّضحية بأسمى تجلّياتها.

فيوم العاشر من المحرَّم، ووقت صلاة الظّهر، وقف الحسين عليه السلام ليؤمَّ آخر صلاةٍ بأصحابه، يومها، وقف أحد صحابة الحسين عليه السلام، وهو سعيد بن عبد الله الحنفي، ليقي الحسين السّهام الّتي كانت تُوجّه إليه من معسكر الأعداء، ولما أُثخن سعيد بالجراح، سقط إلى الأرض، فتوجّه بعينيه إلى الحسين عليه السلام قائلاً: «أوفيت يابن بنت رسول الله»، قال له الحسين عليه السلام: «**نعم يا سعيد، أنت أمامي في الجنَّة**»[1]، فابتسم سعيد وفاضت بعدها روحُه».

قد يكون البحث عن مشاهد التَّضحية في عاشوراء لتسليط الضَّوء عليها، أمراً غير منصف، لأنَّ عاشوراء كلّها عُجنت بالتَّضحية، ولا يمكن أن ترى في شخصيَّاتها وأحداثها ومجرياتها، وفي ثناياها وخلفيَّاتها، إلا التّضحية أمامك...

هي كانت حاضرةً عند الأهل، عند زينب أمّ المواقف (أفضل من مصطلح أمّ المصائب)، وعند عليّ الأكبر والعبّاس والقاسم، وكذلك كانت حاضرةً عند الأصحاب والموالين، عند أمّ وهب وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين... وغيرهم من شخصيّات عاشوراء، الّتي نحتاج إلى المزيد من البحث حولها، لأنّهم غالباً لا يُذْكَرُون في المصارع أو مجالس العزاء.

(١) مثير الأحزان ص ٦١.

قد يسأل المرء عن هُويّة هؤلاء الّذين التحقوا بالحسين، قد نتفهّم تكاتف أهل البيت عليهم السلام، ولكن، ماذا عن الأصحاب؟ البعض يعتقد أنّ هؤلاء هم على هامش المجتمع، يائسون ولا يملكون شيئاً يخسرونه..

والمدقّق في حياة هؤلاء قبل أن يأتوا إلى كربلاء، ماذا يرى؟ يرى أنَّ حياة حياة الكثير من هؤلاء حياةٌ فيها الكثير من الراحة ويصعب تركها، فقد كانت لهم إمكاناتهم وقدراتهم، فهم أصحاب أموال ورؤساء عشائر، وعندهم أزواج وأولاد وبيوت، لم يكونوا على هامش الحياة. كانوا أركاناً فيها.. وأكثر من هذا، ولنفترض أنّهم لم يكونوا كذلك، كان يكفي أن يتنازلوا عن وقوفهم مع الحسين عليه السلام حتّى تنفتح لهم أبواب الدّنيا بكلّ ما فيها، ولكنّهم لم يستجيبوا لكلّ ذلك، آثروا أن يضحّوا بمكتسباتهم الآنيّة أو المؤجّلة، وفضّلوا أن يقفوا هذا الموقف لحساب الله، وأكثر من هذا، لقد ضحّوا بأنفسهم. وهم الرّابحون الفائزون، هم وعوا الآية جيّداً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قمّة التّضحية

إنَّ التّضحية قيمة كبرى، بها تُبنى المجتمعات والأوطان والأمم، وبها تُبذر بذور الخير، فلا خير يتحقّق بدونها...

والتّضحية قيمة في متناول الجميع، فكلّ ما يصدر عنك وتبذله وتتنازل عنه في سبيل الغير دون مقابل، وتكون نيتك خالصةً لله، فهو تضحية، بدءاً من تنازلك عن قليل من الرّاحة وقليل من الوقت وقليل من الطّعام أو المال أو التّضحية بالثّروة والموقع، وصولاً إلى بذل الدّم والنفس..

والمعنيّون بالتّضحية كثر، وهم حولك؛ أهلك، أولادك، أقاربك، جيرانك، زملاؤك، وصولاً إلى أرضك ووطنك وأمّتك..

ونقطة أساسية ينبغي أن نثيرها، حيث إنّ السائد حول التّضحية، هو أن نعطي ونضحّي بما فَضَلَ عنّا، أو بما هو زائد لدينا، مما لا نحتاج إليه... وهذا جيّد ويساعد، ولكن المفهوم الأكثر دقّة والأساس للتّضحية، أن تعطي من أساس مالك ووقتك، ومن صلب جهدك وطاقتك، وقد يكون من طعامك ومسكنك؛ إنها تضحية من اللّحم الحيّ لا من الشّحم.

قمّة التّضحية أن تنفق مما هو عزيز عليك.

لقائل أن يقول هذا منطق مثاليّ وصعب وغير واقعيّ، ولا سيّما أنّ كلّ شيء في هذا الزّمن بات محسوباً؛ الوقت والمال والجهد والعلاقات، ولا شيء سهل المنال. نعم هو صعب، ولكن إذا درّبنا أنفسنا على أن نقوم بذلك لحساب الله، فإنّ التضحية في هذه الظّروف ستحلو أكثر، وتجعلنا ننتصر على أنفسنا أكثر، لنحميها من الأنانية والتّقوقع داخل شهواتها ورغباتها... وهذه المعادلة كانت واضحةً بشدّة:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

أين التّضحية من واقعنا؟

كم نحتاج في واقعنا إلى أن تنتشر معاني التّضحية والإيثار والفداء في دوائرنا الخاصة والعامة الّتي تطال كلّ نواحي الحياة.

ـ تعالوا نتحدّ أسلوب العيش القائم في أيّامنا، والّذي يجرّنا من حيث لا ندري

إلى الأنانيّة والتّفكير فقط في دائرة الذّات.

ـ تعالوا إلى لغة جديدة، لغة تستقي معانيها من التّضحية بين أفراد البيت الواحد.. الزّوج يضحّي ببعضٍ من برنامجه اليوميّ ليبقى مع أسرته، وكذلك الزوجة، وكذلك الأولاد، لا بدّ من تضحية من أجل رعاية الأهل وإدخال السرور عليهم.

ـ كم نحتاج إلى أناس يتنافسون في البذل والعطاء، وشعارهم: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ـ نحتاج أناساً ممّن يقولون: أنا أتخلّى عن جزء ممّا لديّ من أرض لأوسّع طريقاً أو أتنازل من حسابي من أجل حلّ مشكلة..

ـ نحتاج أناساً لا يفكّرون كما يفكّر الكثيرون: لن أتنازل عن حقّي ولو بمقدار شبر، ويقولون: إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب..

ـ نحتاج أناساً يَذْكرهم النّاس بالخير: أياديهم بيضاء.

لتعميم ثقافة التّضحية

أيّها الأحبّة، تعالوا نعمّم ثقافة التّضحية، ولنربّ أنفسنا عليها، ولنطالبها بها قبل أن نطالب غيرنا: كان الإمام عليّ عليه السلام يطالب نفسه بهذه التّفاصيل كلّ ليلة: **«يا نفس هذا يوم قد مضى، أقضيتِ حقّ أخ مؤمن؟ أنفّستِ عن كربته؟ أأعنتِ مسلماً؟ ما الّذي صنعت فيه؟»**[1].

ـ تعالوا أيّها الأحبّة، نقدّر التّضحية والمضحّين والباذلين في مجتمعاتنا، ونشكر الله أن منّ بهم علينا، وأن يكثّر من أمثالهم..

للأسف، بعض الناس لا يعيشون هذه القيمة أبداً، ولا يريدونها من غيرهم. وكما تعرفون، هذا المنطق ليس حكراً على الحياة اليوميّة، إنّما ينطلق في القضايا الكبرى أيضاً..

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠ ص ٦٩.

مثلاً، ألا نسمع أنّه «لماذا على لبنان أن يضحّي؟ ولماذا تُلقى عليه وحده تبعات مقاومة العدوّ...»؟

بعض النّاس أيضاً لم يفهموا تضحية الحسين عليه السلام، ولم يجدوا لها مبرّراً. أتعرفون لماذا؟ لأنّ المضحّي يُحرج، الحسين أحرج كلّ الجبناء، كما المقاومة في لبنان أحرجت كلّ القاعدين الّذين خلت سجلّاتهم من أي إنجاز وطنيّ، فلا سبيل لهم إلا القول: ما نَفْعُ كلّ هذه التضحيات، وكنّا حقّقنا ذلك دون أثمان، وبالطّرق الدبلوماسيّة، وما إلى هنالك.

وغزّة أيضاً أحرجت كلّ الّذين شاءت الهويّة أن تكون فلسطين من مقدّساتهم، ولكنّهم لم يجدوا ضيراً في أن يبقى المسجد الأقصى، أُولى القبلتين، أسيراً مدنّساً، يرزح تحت الاحتلال منذ أكثر من ٦٠ عاماً.

نعم، أيّها الأحبّة، التضحيات تحرج وتفضح، وصوتها مُدوٍّ، لأنّها فعل، لأنّها تطبيق، ولهذا، فالتّضحيات الصّادقة لا تذهب هدراً ولو بعد حين، كما لم تذهب دماء الحسين هدراً ولا تضحياته سدى..

السّلام على الحسين، وعلى أصحاب الحسين وأهل بيت الحسين.

أشهد يا أبا عبد الله، أنّك قد أقمت الصّلاة، وآتيت الزّكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وجاهدت في سبيل الله حقّ جهاده حتّى آتاك اليقين، فجزاك الله عنّا وعن أمّتك خيراً.

* * *

هنيئاً لكم هذه الدموع الزاكية، دموع الحبّ للحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، هي دموع عزيزة حرة، تستمدّ عزّتها ممّن وقف في كربلاء بكلّ شموخ قائلاً: «**والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل**»[1]، إنّها دموع ليست ككلّ الدموع، منطلقاتها مختلفة، وآثارها مختلفة، هي ليست دموعاً حارقة، إنّها دموع مطهّرة للوجدان والقلب والعاطفة...

عندما حطّ الحسين عليه السلام رحاله في كربلاء، أدرك أنّه سيكبّر على أرضها آخر تكبيرة من تكبيرات صلاته، وكانت ملحمته تكبيرة فداء وعبوديّة لله، ختامُها مقالة العقيلة زينب عليها السلام وهي تحتضن الجسد الشّريف: «**اللهمّ تقبّل منّا هذا القربان**»[2].

أصحاب وأبناء وأحبّة، وصبر ودموع وثبات وثقة بالله، كلّ ذلك كان جزءاً من تلبية الحسين لله: «**إن كان هذا يرضيك فخذ حتّى ترضى**»[3].

عاشوراء زلزال يهزّ الأمّة

في زمن العدالة والحقّ، كان علي عليه السلام بصفته خليفة، يطوف في شوارع الكوفة وأسواقها، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكن بعد عشرين عاماً،

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٥، ص ٨.
(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام، القرشي، ج ٣ ص ٣٠٤.
(٣) الإرشاد للشيخ المفيد، ج ٢ ص ٩٦.

شهدت الشَّوارع والأسواق نفسها بنات الرسول ﷺ وعلي عليه السلام، يُطاف بهنّ مسبيّات، مُكبّلات بالأصفاد، دون أن يُحرّك أحد ساكناً.

باختصار، جاء إلى السّلطة حكّامٌ وولاة تركوا طاعة الله، وباعوا أنفسهم للشَّيطان، ومارسوا أساليب ترهيب وترغيب لكيٍّ وَعْي الأمّة، ومَحْو ذاكرتها، وتمّ لهم ما أرادوا: أخرجوا قطار المشروع النبوي عن مساره.. وعندما تفقد أمّة من الأمم روحها، فإنّها لا تستعيدها إلا بزلزال يهزّ كيانها من الجذور، وهذا ما فعلته تكبيرة الحسين عليه السلام في كربلاء.

إنَّ المتتبّع للتاريخ الإسلامي، يعلم كيف هزّت معركة كربلاء كيان الأمّة الإسلامية وغيّرت المعادلات، ومِيْزتها وسرّها أنّها معركة لم يتوقف تأثيرها عند حدود كربلاء، لا في الزمن ولا في الجغرافيا، فقد ظلّت حقيقة حيّة في الذاكرة الإسلامية، تنبض وتُحرّك وتُلهم منذ أربعة عشر قرناً، حيث ألهمت طلاب حق وثواراً وساعين إلى مقارعة ظلم أو جور على امتداد هذه القرون كلها..

ولو راح الباحث يعدّد دروسها منذ بدء إرهاصاتها وحتّى يوم استشهاد الحسين عليه السلام، لاستطاع أن يُحصي المئات من الدروس والعناوين، وفي كلّ عنوان درس للأمّة والمجتمع وتربية للنَّفس..

إنّ البكاء أيّها المواسون، عاطفة طبيعيّة وفطرة زرعها الله في القلوب المرهفة، لكنّها ليست كافية لتكون النافذة الَّتي نطلّ منها على كربلاء، فالمهم هي الدروس، وما أكثرها!

كسر حاجز الخوف

ومن هذه الدروس، الموقف من الظلم حين يحلّ ويتكرّس ويصبح مؤسَّسة لها تأثيرها في حياة الناس. لقد لعن الله سبحانه وتعالى الظالمين، وطلب أن نترجم اللّعن إلى موقف، وهذا ما فعله الحسين، أراد أن يحرّك المياه الراكدة،

والنفوس الخانعة، وأن يكسر حاجز الخوف الذي يقيّد الإرادات والألسن، لم يساوم، ولم يتحدّث همساً، ولم يجامل، ورفض كلّ التسويات أو التراجع عن مشروعه، كي لا يعطي يزيد صكّ البراءة والشرعيّة.

وعندما تعرّض للضّغوط والتّهديد والوعيد، قال الحسين عليه السلام بكلّ جرأة: **«ألا إنَّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة وهيهات مِنّا الذلة»**[1].

إنّه درس في الحرية؛ حرية الرأي، وحريّة الفكر، وحريّة الموقف، وهو منهج للحياة الكريمة.

لقد كانت ثورة الحسين عليه السلام ثورة من أجل الحياة وليس من أجل الموت، بغضّ النظر عن الثمن.. هكذا كرّس الأئمة عليهم السلام ثورة الطّف في ضمير الأمّة، ثورة من أجل الحياة، من خلال رفض كلّ أشكال الطغيان المدمّرة، وحركة في وجه الاستكانة والذل.

الثقة بالله ومقارعة الطغيان

وعلى أرض كربلاء، ضُربت أروع صور الصبر والثبات، ضربها الحسين وأنصار الحسين عليه السلام، والزوجات والبنات والأبناء، عملاً بقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وكان ثبات هذه القلّة وصبرها ولا يزال، قدوة وخطاً من خطوط الحياة الكريمة، يقتفيها كلّ مظلوم، وسيظلّ درساً لكلّ مجاهد، وخصوصاً عندما يقف وحيداً مفجوعاً بأصحابه وأحبّته، فيخاطب الله عز وجل: **«هوّن ما نزل بي أنّه بعينك»**[2].

علّمنا الحسين عليه السلام أنّ الثقة بالله هي الدرع التي تحمي، والسكينة التي

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام، القرشي، ج٢، ص٢٩٠ ٢٩١.
(٢) م. ن: ج ٣ ص ٢٧٦.

تدخل الطمأنينة إلى النفس فلا تجزع، وها هو ينظر إلى جيش ابن سعد، فلا تتزعزع ثقته بالله، وها هو يناجيه: «**اللهم أنت ثقتي في كلّ كَرْب، وأنت رجائي في كلّ شدّة، وأنت وليّ في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة...**».

أيها المواسون، لقد كرّس رسول الله هذه الروح الإيمانيَّة المرتكزة على الثقة بالله في روح الأمّة، وكربلاء كانت ثمرة من هذه الثمرات، ونهجاً يعلّم المؤمن أن لا يرى في النكبة إلاّ رضوان الله، وأنّ الحياة بمرّها وحلوها تظلّ جميلة رائعة وجديرة بأن تعاش ما دامت حركة باتّجاه الله.

في هذا العصر، حيث بات القلق والخوف من المستقبل سمة من سمات العصر، من أين يستقي المرء يقينه وثباته وطمأنينة قلبه؟ وحدهم المؤمنون يعرفون الجواب، وهو ما يقوله الإمام علي عليه السلام: «**والله لا تزيدني كثرة الناس حولي أُنساً، ولا تَفَرُّقُهم عنّي وحشة**»[1].

لهذا، ولغيرها من الدروس، ستظلّ كربلاء ضرورة للبشريَّة، ما دام على الأرض طُغاة ومستكبرون، لأنّ الشخصيَّة المؤمنة تظلّ الاستثناء الوحيد في وجه سيف الظلم وكلمة الطغيان.

أيها المواسون، من هنا ومن منطلق كربلاء نواجه قضايانا، لأنَّ عاشوراء لا تعزلنا عن الواقع بل تجعلنا نقتحمه، فعاشوراء هي الَّتي أسّست لثباتنا، لرجائنا، لأمالنا، لانتصاراتنا على العدو الصهيوني الَّذي صنَّف نفسه أقوى قوّة في الشرق.

كلُّ مشاكلنا من إسرائيل

ومن وحي عاشوراء، سنظلّ نقف في وجه كلّ قوى الاستكبار من دون مجاملة أو مواربة، ومهما كلَّفنا ذلك من حصار وحرب إعلامية وضغوط سياسية وأمنية..

نحن ندرك حجم التَّحديات، وأنهم يهددوننا بسلاح الفتنة الَّذي يُشحذ

(١) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٣٦٢.

باستمرار، ولكنّ وعينا أكبر بكثير من أن نسقط في هذا الفخ. إنَّ وعينا كبير وممتد، من صغارنا إلى كبارنا، ومن نسائنا إلى رجالنا، بأننا لن نذهب بأرجلنا إلى فتنة تُدبّر لنا، بل ستبقى أعيننا وبوصلتنا على العدو الأساس، فالمشكلة ليست مشكلة الشّيعة مع السنّة أو مشكلة السنة مع الشيعة... المشكلة هي في كيان غاصب مستحلّ لمقدساتنا وثرواتنا وأرضنا، يريد أن يستفرد بكلٍّ فردٍ منا على حدة، وجذور كلّ مشاكلنا تنبع من هذا العدو.

وحدة الأمة مدخل الانتصار

في هذه الأيام، ما زلنا نعيش مشهداً من مشاهد الانتصار الَّذي تحقَّق في غزة، من خلال صمود أهلها ومجاهديها، ووقوف المخلصين من أبناء الأمة معهم..

لقد وحَّدت غزة الأمَّة بكلّ مذاهبها وطوائفها، ولعلَّ من أخطر الأمور العودة إلى الوراء، من خلال إثارة جوانب الفتنة بكلّ تنوّعاتها، ولا سيَّما في الوقت الَّذي رأت الأمّة تسلّط العالم عليها وعلى الشعب الفلسطيني، من خلال الدعم غير المحدود لإسرائيل.

علينا أن نتعلَّم الدرس من تاريخنا ومن معركة غزة، أننا عندما نكون موحَّدين فلن يستطيع أحد أن يهزمنا، وأن نأخذ من ذلك العبرة لنكون كذلك في وطننا لبنان، الذي يراد له أن يبقى في دائرة الاهتزاز، وفي العراق حيث مسلسل التفجيرات الدامي، والبحرين حيث لا يزال الحوار مقطوعاً، وباكستان واليمن، وفي سوريا لإيقاف نزيف الدم، وتعزيز فرص الحوار والوصول بها إلى بر الأمان..

البقاء على العهد

في ذكرى عاشوراء، تعالوا جميعاً نجدّد العهد للحسين عليه السلام بأننا ماضون على دربه؛ درب الوقوف في وجه الظلم والطغيان والفساد والاستئثار بثروات الأوطان، نجدد العهد له بأن نبقى أمناء على شعاره: «هيهات منا الذلة»، وأن

تكون أهدافنا أهدافه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح في واقعنا ومجتمعنا وأوطاننا، أن نُبقي الإسلام نقياً صافياً، نميت البدعة ونحيي سنة رسول الله ﷺ.

في يوم عاشوراء، تلحّ علينا العاطفة وتزدحم الدموع في المآقي على أبي الشّهداء وسيّدهم وريحانة رسول الله، والذاكرة تعيدنا إلى تلك الفجيعة، حيث كان وأهل بيته وأصحابه على ثرى كربلاء، مضرجاً بدمائه الزكيَّة الطّاهرة، إنّ حزننا كبير كبير، ولكن لا نفعل أو نقول ما لا يرضي الله.

* * *

سرّ كربلاء

كربلاء أكثر من مدرسة؛ إنَّها جامعة ومصنع، وحياة لإنتاج التّاريخ والتّغيير والمستقبل، ومدرسة لا لإنتاج المصلحين والصَّالحين فحسب، بل لصناعة حزمة من الاختصاصات الإنسانيّة، وفي مقدّمها التمرّد على الظّلم ورفض التسلّط والعبوديّة والذلّ.

مدرسة كربلاء، ومنذ أن كرّست خطّها الجهاديّ في مسيرة الأمّة، أكّدت أنّ الظّلم لا يدوم، فالدّولة الّتي أقامها معاوية، وهيّأ لها كلّ مقوّمات البقاء إلاّ شرط العدل والحقّ، لم تلبث أن تداعت فوق رؤوس طغاتها وإن بعد سنوات.

ومدرسة كربلاء أكّدت أنّ الثّورات الّتي تغيّر مجرى التّاريخ لا يصنعها إلاّ الأوفياء، وأنّ التّغيير يصبح تغييراً حقيقيّاً ومتجذّراً عندما ينجزه هؤلاء.

فالوفاء سرّ من أسرار عظمة كربلاء، ومن أسرار بقاء تلك الثّورة حيّة في ضمير الإنسانيّة، فهو عنوان صدق الإنسان وأمانته ونبله، ودليل استقامته وإيمانه وسلامة ضميره وعقله، وهل كان بين الحسين وأصحابه وأهل بيته غير حبّ لا يعرف إلاّ الوفاء والإخلاص والتّضحية والإيثار؟!

وإلاّ، ما الّذي يدفع برجل من أصحاب الحسين عليه السلام إلى إلقاء لامة حربه،

والاندفاع عاري الصّدر إلى ميدان المعركة، فقيل له: أجُننت.. ماذا دهاك؟ فقال: حبّ الحسين أجنّني.

وسواء صحّت هذه الرّواية أم لم تصحّ، فإنّ التضحيات الّتي عرفتها كربلاء، ابتداءً من الحسين وأهل بيته وأصحابه، وانتهاءً بأصغر مقاتل، كانت نماذج للإخلاص والوفاء، فقد كانت كربلاء ساحةً تجسّد فيها الوفاء بكلّ تجلّياته، أبهاها وأرقاها، فالّذي صنع تلك الملحمة هو الحسين عليه السلام: جدّه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وأمّه الزّهراء عليها السلام وأبوه عليّ عليه السلام، وهو من هو، سيّد شباب أهل الجنّة، وإمام قام أو قعد. لذلك كان من الطّبيعيّ أن يُجسّد في كلّ قول وعمل هذا الخلق الإنسانيّ، حين تمسّك بعهده مع الله عزّ وجلّ، وبدوره كإمام، فثبت على مبادئه وقيمه، وظلّ وفياً لشعارات نهضته وثورته الّتي رفعها.

فالحسين لم يهادن، وظلّ حتّى آخر لحظة من حياته وفيّاً لقضيّته الّتي ندب نفسه وآله لإنجازها. أثخنته الجراح فما تزعزع يقينه، وسقط شهيداً وما أعطاهم إعطاء الذّليل، ولا أقرّ إقرار العبيد، وشعاره: **هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله.**

العشق للحسين عليه السلام

وصفحة أخرى من الوفاء، تشرق ساطعةً في سماء كربلاء، هي الصّفحة الّتي خطّها أصحاب الحسين وأهل بيته، في مواقف أصبحت (كأيقونات) يذكرها المؤرّخون ويتناقلها رواة السّيرة، ويستلهمها الثوّار والمجاهدون.

إنّ أنبل وأرقى صور الوفاء، تلك الّتي تظهر في الأزمات والأوقات العصيبة والمواقف الصّعبة، وأصحاب الحسين كانوا كما قال فيهم الشّاعر:

لبسوا القلوب على الدّروع وأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفسِ

إنّ الوفاء لخطّ الحسين وما يُمثّله، كان الخيط الّذي جمع تلك الصّفوة الّتي صنعت مع الحسين عليه السلام ملحمة كربلاء، فقد كان هؤلاء رجالاً ونساءً وشباباً

وفتياناً عاديّين، لهم عائلات، وربما أولاد وزوجات، ولهم آمال وهموم ومشاريع وأفراح وأحزان، لكنّهم وضعوا كلّ هذا وراء ظهورهم، ولم يعد يشغلهم غير واعية الحسين ونصرته.. وكان لكلّ واحد منهم حكاية من حكايات الوفاء.

كان اسمه عابس بن أبي شبيب الشّاكري، وكان أشجع النّاس، ولقبه أسد الأسود. تقدّم من الحسين مودّعاً ومستأذناً وقال: «يا أبا عبدالله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضّيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلته.. أُشهد الله على أنّي على هَدْيك وهدي أبيك». (وهو نفسه الّذي قال حبّ الحسين أجنّني).

هذه الصّفوة كانت تعيش لحظات عشق إلهيّ، وحالة وفاء للحسين تصل حدّ الذّوبان في حبّه.

كان أصحاب الحسين من أهل البصائر، لذلك كان وفاؤهم الوفاء الواعي، والوفاء البعيد عن أيّ عصبيّة أو مصلحة ذاتيّة، وبرز وعيهم هذا في وضوح الرّؤية عندهم، أنّهم ضحّوا بأنفسهم من أجل بقاء الدّين، وضرب الباطل اليزيديّ، ومحاولة إخراج الأمّة من مستنقع الخنوع والصّمت والقبول بالانحراف.

كانوا يرون فيه رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام، والإسلام النقيّ، واستمرار الرّسالة، لهذا كان وفاؤهم للحسين عليه السلام وفاءً لرسول الله ﷺ، وتمسّكاً بنهجه وخطّه، ووفاءً لخطّ عليّ، باعتباره الإمام والامتداد للنبيّ، وهذا سعيد بن عبدالله الحنفي يقول للحسين عليه السلام، حين يُحلّهم ليلة العاشر من أيّ بيعة أو عهد، ويبيّن لهم ما هو مقبل عليه: «لا والله يابن رسول الله، لا نخلّيك أبداً، حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا فيك وصيّة رسول الله ﷺ»..

ومع سقوط الحسين صريعاً، كَثُرَ صياح القوم وهرْجهم، وكان بين أصحاب الحسين الصّرعى، سويد بن أبي مُطاع، وكان يُحسب في عداد الشّهداء، لكنّه كان

لا يزال حيّاً، واستفاق من غيبوبته، فوجد في نفسه بقيّة من عزم، ففتّش عن سيفه فلم يجده، واهتدى إلى مدية، واندفع نحو القوم. لقد أبى عليه وفاؤه أن يستسلم للموت وفيه بقيّة حياة، أو يستسلم لرجاء الحياة وفيه بقيّة من قوّة لإكمال واجبه.

ومع سويد، تنتهي المعركة العسكريّة في كربلاء، لكنَّ صفحة كربلاء لن تُطوى، فهي معركة مفتوحة ولن تقفل، ما دام هناك أوفياء يكملون ما بدأه الحسين عليه السلام وأصحابه، وما كرّسته زينب والأئمّة عليهم السلام، هو هويّة دائمة لكربلاء.

كيف نكون الأوفياء؟

أيّها الأحبّة: ويبقى السّؤال لنا نحن وكلّ من تعنيه ثورة كربلاء، وكلّ من يعنيه الحسين كابن بنت رسول الله، وقد وصّى به المسلمين أجمع:

كيف يمكن أن نكون أوفياء للحسين عليه السلام؟

ونحن في أربعين الإمام الحسين عليه السلام، هل تكفي الدّمعة، والحزن، ولبس السّواد والزّيارة كي نكون أوفياء؟

لقد كانت كربلاء ثورةً من أجل الحياة وصناعة الإنسان، لذلك فإنّ أيّ دمعة نسكبها على مأساة الحسين عليه السلام، فيما الظّلم والفساد والانحراف يسرح ويمرح حولنا، تجعل وفاءنا أمراً مشكوكاً فيه. إنّ انحسار اهتمام جماعة من المسلمين بعاشوراء دون كلّ المسلمين، هو خلل يعكس وفاءً وحبّاً منقوصاً أو شكليّاً لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

عندما أطلق الحسين عليه السلام نداءه: «**ألا من ناصر ينصرنا؟**»، كان يقصد النّصرة في كلّ عصر، وهذه النّصرة هي ممكنة ومتعدّدة الوجوه بتعدّد مجالات الحياة وساحاتها:

ـ نكون أوفياء للحسين عليه السلام بالحفاظ على وحدة الصفّ الإسلاميّ، ومواجهة

كلّ قوى الاستكبار من دون مجاملة أو موارية، وفضح أيّ مشروع هدفه التّفتيت وزرع الفتن المذهبيّة والدينيّة.

ـ نكون أوفياء للحسين عليه السلام بزيادة وعينا السياسيّ، لمواجهة الضّغوط الإعلاميّة والسياسيّة والأمنيّة الرّامية إلى توهين إرادة مقاومة الاحتلال الصّهيونيّ، ورفض كلّ مشاريع التّطبيع والتّطويع.

ـ نكون أوفياء للحسين ولخطّ الأئمّة عليهم السلام، بالبراءة من أعدائهم أعداء الإسلام، واتّباع نهجهم قولاً وفعلاً.

ـ ننصر الحسين عليه السلام، ونؤكّد وفاءنا له ولخطّه، بالانتصار على ذاتيّتنا وأنانيّاتنا لحساب قضايا الأمّة وقضايا مجتمعاتنا.

ـ ونكون أوفياء للحسين عليه السلام وخطّ الحسين، بتكريس المنبر الحسيني نافذةً تستلهم الحدث العاشورائيّ بحقيقته وأصالته، ليس من أجل الانحباس في التّاريخ، إنّما من أجل أن تأخذ قيم الثّورة الحسينيّة طريقها إلى راهننا وواقعنا، وبذلك ننظر إلى قضايانا ومشكلاتنا ومستقبلنا من نافذة كربلائيّة.

ـ إنّ خطّ الثّورة كان دائماً قاطرة التقدّم والتّغيير في تاريخ الأمم، وأيّ ثورة لا يمكن أن تبدأ إلاّ بالثّورة على النّفس ومطامعها ونوازعها، وكربلاء لم تتحوّل إلى مدرسة للوفاء، إلاّ لأنّها كانت مصنعاً للصّبر والعطاء والبذل والتّضحية.

نعم، بالخروج من حدودنا الضيّقة إلى رحاب العطاء الحسيني، نصبح جديرين بأن نكون حسينيّين، ونردّد بكلّ صدق: لبّيك يا حسين.

إنّ في الدّمعة على الحسين عليه السلام تجديدَ بيعة وولاء له ولأهل بيته، والمحافظة على نار هذا الحزن في أعماق القلب، ضمانة للتمسّك بنهج الحسين عليه السلام، وتربية النّفس تربية كربلائيّة، فَلِقَتْلِ الحسين عليه السلام، كما يقول الإمام الصّادق عليه السلام: **«حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»**.

نبكيه؟ نعم. يحفر الحزن في القلب؟ نعم. لقد كان الحسين فوق الحزن والبكاء، لهذا نبكيه كي نكون بمستوى حبّه، وكي يعرّش هذا الحبّ في القلب، ومتّى عرّش خرجت من ذاتك إلى رحاب الحياة.

أيّها الأحبَّة: في هذه الذّكرى، نتوجَّه بقلوبنا وأرواحنا مع كلّ زوّار الحسين الّذين يتوجَّهون الآن إلى مقامه الشَّريف، غير آبهين بالأخطار ومشاقّ الطّريق وبُعد المسافة، لنقول له: **السّلام عليك يا أبا عبد الله، السّلام عليك يابن رسول الله، السّلام عليك يابن فاطمة الزّهراء، السّلام عليك وعلى الأرواح الّتي حلّت بفنائك وأناخت برحلك، عليك منّي سلام الله أبداً ما بقيتُ وبقي اللّيل والنّهار، ولا جعله الله آخر العهد منّي لزيارتك. أشهد يا مولاي أنّك قد أقمت الصّلاة، وآتيت الزّكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر**، وذلك بدمك ودماء أصحابك وأهل بيتك وسبي نسائك، من أجل إعلان دين الله، فجزاك الله عنّا وعن أمّتك خيراً كثيراً.

* * *

دموع العزّة والعنفوان

مبارك لكم كلّ هذه الدّموع الطاهرة الّتي تنبعث من قلوب امتلأت حبّاً للحسين وأصحابه وأهل بيته، ممّن بذلوا مُهَجَهُم وأرواحهم لأجل أن يبقى الإسلام حياً، لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لإصلاح أمة رسول الله، لأجل أن لا يبقى إنسان متألّم ومعذّب ومظلوم. هي ليست دموع الضعفاء والمنهزمين، هي دموع تنبض بالعزة والعنفوان. هي دموع تنهمر ومعها القبضات المرفوعة، والمواقف العزيزة التي تخاطب المستكبرين والمحتلين والفاسدين. «**لا وَالله لا أُعطِيكُم بِيَدي إعطَاءَ الذَّليل، وَلا أقِرُّ لكم إقرارَ العَبيد..**» «**هَيْهَات مِنَّا الذِّلَّة، يَأبى اللهُ لَنا ذَلكَ وَرَسولُهُ والمؤمِنون**»[1] هي دموع واعية تعرف أعداءها جيداً؛ هم كلّ مستكبر وغازٍ ومحتلّ.

مع منطق الحسين بلا شروط

أيّها الأحبّة، نحن اليوم نؤكّد من خلال كلّ حضورنا لمجالس عاشوراء، أنّنا منحازون، وبشكل كامل وبدون أي تردد إلى منطق الحسين وأصحابه وأهل بيته، رغم أننا نعرف أنّ هذا الموقف كما كلّف الحسين وكل الذين كانوا معه قد يكلّفنا

(١) نَفَس المهموم، ص ١٣١.

دماءً وتضحيات وحصاراً سياسياً واقتصادياً وأمنياً، لكن كل هذا لن يغيّر شيئاً في قاموسنا.

إنّ ما جرى في كربلاء لم يكن بين جيشَيْن تقاتلا وانتهت المعركة بقدر ما كان بين منطقين وأسلوبين لا يزالان يتصارعان في الحياة؛ فالّذين وقفوا في وجه الحسين عليه السلام كان منطقهم حبّ الدنيا، كما عبّروا هم، ولأجله باعوا قيمهم ومبادئهم. منطق الاستئثار والسّيطرة، منطق الخائفين، منطق القساة الذين يستبيحون حتى أقدس المقدسات لحساب «اشهدوا لي عند الأمير».. وفي المقابل منطق الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته، منطق الوعي، منطق الإصلاح، منطق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، منطق الحوار والكلمة الطيّبة، منطق المضحين والغيورين الذين يقولون: **«ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه...»**[1]، منطق: **«إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظّالمين إلا برما»**[2].. منطق **«هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله»**... منطق القرآن ورسوله صلى الله عليه وآله...

أيّها المواسون، لم تكن عاشوراء بعيدة عن حركة رسول الله صلى الله عليه وآله، هي استمدّت منها حركتها وشعارها وأسلوبها.. هي تأكيدٌ لما دعا إليه رسول الله وإحياءٌ لما جاء به، ومن هنا كان عنوان ثورته عندما قال: **«أيّها الناس، إني سمعت رسول الله يقول: مَن رأى منكُم سُلطاناً جائِراً، مُستحلاً لحرم الله، ناكثاً بعَهدِه، مُخالِفاً لسنّةِ رسولِ الله، يَعملُ في عبادِه بالإثمِ والعدوانِ، ولم يُغيّر عليهِ بقولٍ ولا بفعلٍ، كان حَقّاً على الله أن يُدخِله مَدخلَه»**.

«إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلاَ بَطِراً، وَلاَ مُفْسِداً وَلاَ ظَالِماً؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإِصْلاَحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي؛ أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ».

---

(١) المناقب لابن شهرآشوب، ج٤ ص٦٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٤ ص٣٨١.

ولذلك نقول إنّ عاشوراء إسلاميّة في منطلقاتها وأهدافها وحركتها، وينبغي أن تكون إسلاميّة في الإحياء.. أن تُحيا عاشوراء من خلال الأساليب الّتي تتناسب مع الإسلام في شريعته، وتساهم في توسعة حضوره.. أن تكون أساليبها طاهرة تستلهم الحسين وأصحاب الحسين وتعبّر عنهم. ومن هنا نقف أمام كل الأساليب التي نرى فيها مخالفة لحُكم شرعي كمثل الممارسات التي فيها إيذاء للجسد، كالتطبير وضرب الظهور بالسلاسل والتي تُسيء إلى صورة عاشوراء وطهارتها وقدسيّتها. نريد لعاشوراء أن تكون ذكرى جامعة يلتقي على إحيائها كلُّ المسلمين، كما كلُّ إنسان يريد أن يعيش بعزّة وكرامة ..

لإحياء إسلامي مشترك للذكرى

ومن هنا، فإنّنا نعيد الدّعوة لكلّ المسلمين، إلى التلاقي على إحياء عاشوراء، ولا نكتفي بالمشاركة فيها ، رغم أهميّة أن يشارك كلّ المسلمين في إحياء هذه المناسبة، بل أن نحييها معاً من خلال تربية كل أجيال المسلمين على شعاراتها وروحيّتها وأهدافها وحيوتها، فلا يستفيد منها بعض المسلمين دون البعض الآخر. أن نعمّق شعاراتها على أرض الواقع ، أن نتعاون من أجل إصلاح أمّة رسول الله في أن نقف معاً في مواجهة الفساد والظّلم والطّغيان.. سواء كان ظلماً داخليّاً أو عالميّاً.. أن نكون كالجسد الواحد في مواجهة من يتحدّى الإسلام في فكره وحضوره، ويتحدّى المسلمين في عزّتهم وحرّيتهم.. إنّنا نقول لكلّ المسلمين: تعالوا لنتوحّد على عاشوراء كما توحدنا على رسول الله، فالحسين عليه السلام من رسول الله ﷺ ورسول الله من حسين: «**حسينٌ مني وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حسيناً**».

المعنى الحقيقي للإحياء

أيّها الإخوة والأخوات، عاشوراء لا نريدها أن تكون مناسبةً نبقيها في التاريخ فيما واقعُنا يضجّ بالفساد والظلم فلا نحرّك في مواجهته لساناً ولا يداً ولا قلباً،

نترك له الحرية ليتحرّك مستفيداً من صمتنا، من خوفنا، واتّكاليّتنا. فلا يمكن أن يكون هناك مَن يُحيي ذكرى الحسين عليه السلام ويستكين لظالم أو مستكبر أو يقبل بظلم أو طغيان أو فساد. لقد صنع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته عاشوراءهم. هم لن يكتفوا منا أن نبكيهم، أن نلبس السواد عليهم. بل أن نكون معهم، في الموقع الذي كانوا فيه بحيث نقف كما وقفوا مع الحقّ ضدّ الباطل، مع العدل ضدّ الظلم، مع الإصلاح ضدّ الفساد، مع الله ضدّ شياطين الإنس والجن. لا نجامل أحداً على حساب مبادئنا وقيمنا.

مع فلسطين لأنّنا حسينيّون

أيّها المواسون، تطلّ علينا عاشوراء وهناك أكثر من قضية تلحّ علينا. القضية الأولى والتي هي أم القضايا، قضية فلسطين، حيث تمرّ هذه الذكرى و لايزال العدو الصهيوني يعبث ويبشرها حجرها ومقدّساتها.

في ذكرى عاشوراء، لا يمكن لنا كحسينيّين إلا أن نقف مع هذه القضيّة لكونها قضيّة عزّة وكرامة وحقوق مسلوبة ومصادرة، ومن هنا سنبقى نقف مع الشّعب الفلسطينيّ المظلوم، وندعمه بكلّ الوسائل المتاحة، فلا تُنسى هذه القضية كما يُراد لها أن تنسى في ظلّ انشغال العالم العربي والإسلامي بأزماته والفتن التي تحصل فيه، وأن نتحرّك إعلاميّاً وسياسيّاً مع كلّ القوى العربيّة والإسلاميّة المناهضة للاحتلال الصّهيونيّ، لإظهار أنّ ما يتحرّك من مفاوضات بين العدوّ والسّلطة الفلسطينيّة، ليس إلا للاستهلاك الإعلاميّ، ولتقطيع الوقت، ريثما ينتهي العدو من مشروعه الاستيطاني وتهويد القدس.

في ذكرى عاشوراء، تعالوا نتوحّد جمعياً، مسؤولين وعلماءَ ومثقفينَ، للدعوة إلى إيقاف نزيف الدم الذي تشهده سوريا والعراق ومصر واليمن وليبيا والبحرين ... حيث الفتن تستنزف كلّ مواقع القوّة في العالم العربي والإسلامي، سواء فتن

طائفية أو مذهبية أو بين الدول العربية والإسلامية، وهي أكثر ما تستفيد من انعدام لغة الحوار والمنطق التكفيري الإلغائي والجهل والتخلّف، حتى استُبدل العدو ليصبح هذا المذهب أو هذه الطائفة أو هذا البلد العربي أو الإسلامي أو هذا الموقع المقاوم، فيما العدو الأساس هو مَن يريد الاستئثار بأرضنا وثرواتنا ومقدّساتنا، وهو الذي ينبغي أن تُوجّه كلّ طاقاتنا في مواجهته. إنّنا بحاجة إلى تعميق لغة الحوار والتواصل ومد الجسور ومعالجة الخلافات بروح من التسامح والانفتاح.

وفي هذا المجال، فإننا نأمل أن تساهم كل دعوات الحوار، سواءً كانت على المستوى الإسلامي، أو الإسلامي المسيحي، أو في داخل الدول العربية والإسلامية، أو فيما بينها، أو بينها وبين الغرب. في علاج الكثير ممّا نعاني منه في واقعنا، وتبريد الأزمات التي باتت تستهلك الحجر والبشر. وندعو إلى تعزيز فرص نجاحها حيث لا علاج للكثير مما نعاني منه إلا بالحوار المبني على قاعدة «**لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين**». فالعنف لا يؤدي إلا إلى العنف، والتوتير لا ينتج إلا توتيراً.

هذا ما نريده أيضاً لهذا البلد لبنان، والذي بدأت تطلّ الفتنة إليه من أكثر من موقع، والخوف المتزايد من تفجير هنا أو هناك، لبنان الذي يعاني من تأثيرات محيطه عليه، في ظلّ انقسام داخلي وعدم انتظام عمل المؤسّسات، فضلاً عن تهديد العدو الصهيوني، مما بات يفرض على الجميع المسارعة لتأمين مناخات الحوار والتواصل، والعمل سريعاً لتشكيل حكومة جامعة، والخروج من الخطاب المتشنّج والمتوتر، حفظاً لهذا البلد ممّا ينتظره في داخله على إنسانه في معيشته وأمنه، ومن خارجه نتيجة الظروف التي تحيط به.

أيّها المواسون، في ذكرى عاشوراء، عاشوراء التضحية والفداء، نحن بحاجة لاستلهام هذه القيمة، لنضحي بعصبيّاتنا، بأنانيّاتنا، بمصالحنا الطائفية والمذهبية لحساب أوطاننا، ولأجل مستقبل أجيالنا.

في ذكرى عاشوراء الإصلاح، فلتُبذل كلّ الجهود لإصلاح واقعنا الاجتماعي والأخلاقي والقيمي كما إصلاح واقعنا السياسي والاقتصادي والأمني، لنحفظ مجتمعنا، ونبقيه قوياً قادراً على مواجهة التحديات.

في ذكرى عاشوراء الجهاد والمقاومة، نشدّ على أيدي المقاومين المجاهدين الذين يقفون في الخطوط الأمامية، يحفظون البلد من العدو الصهيوني الذي يعمل بكل يوم على استباحة بره وبحره وجوّه.

في ذكرى عاشوراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليعمل كلٌّ منّا على أن يتحوّل إلى رافض للمنكر داعٍ للمعروف، كي لا يتحوّل المعروف إلى منكر، والمنكر إلى معروف، وتتبدّد المفاهيم والأفكار والعقائد.

بذلك نخلص للحسين عليه السلام ولأصحابه وأهل بيته، وللدماء الزاكيات في كربلاء.

السّلام على الحسين.. وعلى أولاد الحسين.. وعلى أصحاب الحسين..

* * *

لم يتحدَّث الله سبحانه وتعالى عن رسوله كما تحدَّث عن رحمته: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ورحمة رسول الله كانت خياره، ومن قبل أن يُبعث نبيّاً، وبقيت السّمة الأبرز في شخصيّته لما بعد المبعث، ولهذا كانت الرَّحمة عنواناً له ولرسالته: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

سيرةٌ ملؤها الرّحمة

وإنَّنا بحاجة إلى أن نستعيد الحديث عن رحمة رسول الله ﷺ ونحن نعيش أجواء كربلاء، ففي غمار تلك الرّحمة تربّى الحسين عليه السلام، ونهل من معين قلبٍ اتّسع لهموم الإنسان، حتّى وإن كان عدوّاً. فهو الرّحمة بعينها، هو التّراحم والمرحمة، ومهما قلّبت في سيرته العطرة، فإنّك لن تعثر على موقف خلا من الرّحمة في ظاهره أو في أبعاده، في الحرب أو السّلم، مع القريب أو البعيد، مع مَن آمن به ومَن لم يؤمن... إنّه مدرسة في الرّحمة للعالم أجمع.

ومن سيرته الطّاهرة أنّه:

كان يجالس الفقراء والمساكين ويؤاكلهم، عطفاً منه ومواساة.

وكان حريصاً على أن يتفقّد أصحابه واحداً واحداً، فإن كان أحدهم غائباً دعا

له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده... لقد كان ﷺ يبذل المجهود ليوصل إليهم محبّته وعطفه الخالص لوجه الله.. وهو رسول الله وخير خلق الله.

أمّا الصّغار، فلطالما دعا للرّحمة بهم، وهو مَنْ كان يقول: «**ليس منّا مَنْ لم يرحم صغيرنا**»(١)، وكان لا يقبل بأن يُساء إلى الأطفال، أو أن يُقسى عليهم ولو من خلال نبرة صوت، حتّى وإن أساؤوا إلى طهارة مسجده بعض الأحيان، كما حصل في أحد الأيّام في مسجده في المدينة.. وكان يعتبر أنّ النّجاسات هي بقع نزيلها بالماء، ولكنّ البقع الّتي تحدث في قلوب الصّغار جرّاء القسوة، من الصّعب إزالتها..

وكما الصّغار، كذلك اهتمّ رسول الله ﷺ بكبار السّنّ، ودعا إلى توقيرهم لسنّهم، فهم إن لم يكونوا الأسبق إسلاماً، فإنّهم الأكثر تجربة وخبرة في الحياة، وهو الّذي قال: «**ليس منّا مَنْ لم يوقّر كبيرنا**»(٢).

والرّسول ﷺ لم يكن في سلوكه التّراحميّ هذا يريد أن يسجّل موقفاً تربوياً نظرياً، بل كان يتألّم حقيقةً لآلام الآخرين من حوله ويَشفق عليهم. وقصّته مع جاره الّذي طالما آذاه بوضع النّفايات والأوساخ في طريقه معروفة، إذ إنّه ﷺ لما علم يوماً بمرضه، عندما لم يجد الأوساخ موضوعةً كالعادة، أسرع إليه ليطمئنّ عليه، من باب رحمته بالضّعفاء من حوله. والمرض، كما الفقر كما الذّل، هي حالات ضعف لأصحابها. لهذا كان دعاؤه للّذين حاربوه: «**اللّهمَّ اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون**»(٣).. لذلك عندما قيل له ادعُ على المشركين، قال: «**إنّي لم أُبعث لعّاناً، وإنّما بُعثت رحمةً مهداة**»(٤).

---

(١) التحفة السنية، السيد عبد الله الجزائري، ص ٣٢٠.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٦٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٢١ ص١١٩.

(٤) الجامع الصغير، السيوطي، ح ٢٥٨٣.

وبقي رسول الله هكذا، لم تغادره الرّحمة حتى عندما صار جيشه يُعدّ بالآلاف، كما حصل عند دخوله مكّة فاتحاً، إذ سأل أهلها يومها عندما اجتمعوا إليه: «**يا معْشَرَ قريش، ما ترون أنّي فاعل بكم؟**»، قالوا: «خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم»، فقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطّلقاء**». وأكثر من هذا، لقد اقتضت رحمة رسول الله وشدّة عطفه ورحمته، أن يبكي على الّذين لم يؤمنوا، لما سيؤول إليه حالهم عندما يقفون بين يدي الله، حتّى نزلت هذه الآية لتخفّف عنه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

ولم تقف حدود رحمة رسول الله عند الإنسان، بل امتدّت إلى كلّ ذي روح من الحيوان.

وتعالوا نتأمّل هذه الحادثة الّتي رواها ابن مسعود قائلاً: كنّا مع النبيّ في سفر...، فرأينا حُمَرَةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمّرةُ فجعلت تَعْرِشُ، فلمّا جاء رسول الله، تأمّل هذه العصفورة، ورآها حيرانة، فأدرك بإحساسه ما تعانيه، وقال لهم هذا الكلام العاطفيّ: «**من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها**»[1].

هذا هو قلب رسول الله الّذي مُلئ رحمة وعطفاً، رقّة وإشفاقاً، حتّى أنّ دموعه كانت تنساب لمشهد إنسان يتعذّب أو يتألّم، أو لموت إنسان عزيز، وهو من بكى ولدَه إبراهيمَ عندما تُوفّي، وعندما قيل له: يا رسول الله، أنت تبكي؟ اعتقاداً منهم أنّ البكاء يتعارض مع الصّبر، قال: **إنّها الرّحمة**.. ثم قال: «**العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**»[2].

وهو الّذي أنزل فاطمة بنت أسد أمّ عليّ عليه السلام إلى قبرها وبكاها قائلاً: «**رحمك الله يا أمّي، كنت أمّي بعد أمّي**»، وهو الّذي بكى أمّه وبكى خديجة وبكى الحمزة.

---

(١) صحيح أبو داود، الألباني، (٥٢٦٨)

(٢) صحيح البخاري، ج ٢ ص ١٠٥.

هذه الرّحمة هي الّتي جعلته يبكي الشّهداء، مع أنّه يعلم أنّهم أحياء عند ربّهم يُرزقون..

فاجعة كربلاء

ونحن في أجواء رحمة رسول الله، نعيش فاجعة كربلاء، ونتساءل بحرقة: تُرى، هذا القلب الحاني، الممتلئ عطفاً ورحمة، كيف كان حاله وهو في عليائه، يشاهد تلك الأجساد من أهل بيته وأصحابه، وقد ملأت رمضاء كربلاء، ومزّقتها السّيوف؟

كيف بقلب رسول الله وهو يرى فاطمة ابنته وبضعته الّتي طالما قال عنها: «**من آذاها فقد آذاني**»[1]، وقد فُجعت بولدها وسُبيت ابنتها؟

كيف بقلب رسول الله العطوف الحنون، وهو يرى الثلّة الطّاهرة المؤمنة المجاهدة، تُعاقَب هي وأطفالها ونساؤها بالعطش والحصار والرّماح والسّيوف؟

وكيف به وهو يرى رأس الحسين عليه السلام مرفوعاً على الرّماح، الحسين الّذي طالما قبّله ووضعه في حجره وأركبه ظهره ليؤنسه وليفرحه مع أخيه الحسن؟

نقولها لكلّ المسلمين: قد لا نحتاج في الحديث عن الحسين عليه السلام وكربلاء إلى أن نبيّن الكثير، أو نفنّد الظّروف الّتي أدّت إلى ذلك، وندخل في التّحليلات والاستنتاجات، يكفينا أن نذكّر ببعض ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله عن الحسين عليه السلام، ورسول الله لا يتحدّث عاطفةً، ولا ينطلق من حسابات خاصّة، وهو الّذي لا ينطق عن الهوى.. أقوال لطالما كرّرها على مسامع المسلمين: «**حسين مني وأنا من حسين**»[2]، «**الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة**»[3]، «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**»[4].

---

(١) كنز العمّال ج ١٣ ص ٩٦.
(٢) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣٠٧.
(٣) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣٠٦.
(٤) بحار الأنوار ج ١ ص ٧٨.

«**اللّهم إنك تعلم أنّي أحبّهما فأحبّهما**»[1]، ومن هنا شرعيَّة منطلقات الحسين عليه السلام وأهدافه وشعاراته وشرعيَّة الأسلوب الّذي اتّبعه.

من هنا، على كلّ المسلمين، وليس بعض مذاهبهم فقط، أن يقفوا عند كلّ ما أنتجه ذلك اليوم الأسود من عاشوراء، ويزيلوا الغشاوة الّتي تمّ وضعها، وأن يعوا أنّ ما حدث ليس مشكلة بين فئتين أو عائلتين؛ بين بني سفيان وبني هاشم، المشكلة هي مشكلة هؤلاء المسلمين مع رسولهم الّذي أوصاهم بهذه الوصيّة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: ٢٣].

العودة إلى قيم عاشوراء

أيّها الأحبّة.. لقد شكّلت عاشوراء مفترقاً وانفصالاً ما بين هدف الرّسالة وغايتها، ألا وهي الرّحمة، وبين الهويّة الشكليّة بأن يكون الإنسان مسلماً شكلاً. فأيُّ مفارقة هذه، وأيّ مأساة هي أن ينزع المسلمون عنهم ثوب الرّحمة، ويعودوا ليلبسوا ثوب التعصّب وأغلال الأحقاد والضّغينة، ولا سيَّما مع بعضهم البعض، مع أنَّ الرّسول أوصاهم بأن لا يعودوا بعده كفّاراً يضرب بعضُهم رقاب بعض.

لهذا، لا بدَّ من أن تكون هذه الذّكرى حاضرةً لدى الجميع، لا أن يتربَّى عليها بعض أجيال المسلمين دون البعض الآخر، المطلوب أن يدخل مضمون عاشوراء إلى الوجدان والعاطفة والعقل، كي يتعلّم المسلمون:

- أنّه إذا غابت الرَّحمة، لم يبق لهم شيء يربطهم برسول الله سوى الإسم.
- وإذا غابت الرَّحمة، حوَّلوا دينهم إلى سلاح مفزع وخطير.
- وإذا غابت الرّحمة بينهم، سلّط الله عليهم من لا يرحمهم.
- وإذا غابت الرّحمة، خسروا الدّنيا والآخرة.

(١) ترجمة الإمام الحسن عليه السلام، لابن عساكر، ص٩٧.

الرّحمة مفردة باتت ـ وللأسف ـ غريبة في عالم المسلمين الّذين يأخذون أبعد المسافات عنها، وإلا بماذا نفسّر أن يروّع مسلم مسلماً، أن يقتل مسلم مسلماً؟! وليس هذا فقط، بل أن يختار من الأساليب أشنعها وأبشعها، ثم لا يستحي، بل يتباهى. وليس هذا فقط، بل يسجّل فعلته ويصوّرها ليريها للعالم كلّه..

فأيّ قسوة هذه، وأيّ ضياع نعيشه؟

أيّها الأحبّة: إنّنا نرى بعض مآسي كربلاء يُعاد إحياؤها بشكلٍ أو بآخر في بلاد المسلمين، باستهداف الأبرياء والمظلومين، وباستهداف أصحاب الحقّ ورافضي الظّلم ومستنكري المنكر، وباستهداف كلّ من يحمل قيم **«لا أعطيكم بيدي إعطاء الذّليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»**.

فلنعد كمسلمين إلى عاشوراء، إلى ما جرى فيها، لعلّ ذلك يساهم في استعادة معاني الرّحمة المفقودة بيننا اليوم، الرّحمة الّتي أرادها الله للمسلمين، والّتي جسّدها رسول الله وأرادها أن تكون عنواناً لأصحابه. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

عاشــــوراء
ودروس التّوبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التّحريم: ٨].

نعيش اليوم أجواء موسم عاشوراء، هذا الموسم الّذي يضجّ حزناً وألماً، نترجمه دعاءً وابتهالاً: **«يا ليتنا كنّا معك يا أبا عبدالله، فنفوز فوزاً عظيماً»**...

وننظر إلى كلّ الّذين كانوا مع الحسين بإكبار؛ نجلّهم، نغبطهم، فيما ننظر إلى كلّ من تخلّف عن نصرته، فنرى أنهم خسروا خسراناً مبيناً، وارتكبوا ذنباً عظيماً، وسقطوا سقطةً كانت مدويّة.. لا مجال فيها للتبريرات أو مسامحة النّفس أو إيجاد الأعذار.

صحوة ما بعد عاشوراء

بعد عاشوراء، استفاقت الضّمائر، وجاء الألم متأخّراً، ولكنّه كان أشدّ قساوةً، والدّموع وحدها لم تكن تكفي..

وتنقل لنا السيرة الحسينيّة، أنّ جوّاً من النّدم ساد بشدّة في الكوفة وفي غيرها، والبعض قضاه بالبكاء والنّحيب والانكفاء، وجلد الذّات على خيانتها، فيما

البعض الآخر حوَّل ندمه إلى حركة مواجهة وتحدّ للواقع.

ينبغي أن نشير إلى أنَّ حالة النَّدم والتَّوبة، بدأت خلال مجريات ملحمة كربلاء، وتمثّلت بنموذج بات يُضرَبُ به المَثَل، وهو الحرّ بن يزيد الرّياحي، الّذي نعرف جميعنا كيف تحوّل موقفه لجهة الحسين عليه السلام، وفي الوقت المناسب، إذ لامست التَّوبة قلب الحرّ، مع أنّه كان قد قطع شوطاً كبيراً في الإثم؛ فهو مَنْ ضيَّق على الحسين عليه السلام عندما وصل كربلاء، منعه من دخول الكوفة، ولم يسمح له بالعودة إلى المدينة، وحاصره بجيشه المقدّر بألف فارس...

هذا الرَّجل، عندما جاء يوم عاشوراء، استفاق وعاش الصّراع مع نفسه، ولم يَطُلْ به الأمر، فغالبها وانتصر، وكان بذلك حالة نادرة، لأنّه من المعروف، كما يقول علماء النفس، إنّ مَن يقطع شوطاً كبيراً في الخطأ، من الصّعب أن يعود عنه بسهولة، بل يُصرُّ عليه ويتمادى به ليبرّر فعلته، إلا أنّ الحرّ لم يتردّد في أخذ قراره، استعاد نفسه، استهدى ببوصلة إيمانه قائلاً: «والله لا أختار على الجنّة شيئاً وإن قُطّعت أو حُرّقت».

والملفت، أيّها الأحبّة، أنَّ الحرَّ لم يختر ترك مقاتلة الحسين وكفى، وكان قادراً على الخروج أو الفرار، لكنّه لم يفعل، بل حوَّل توبته إلى موقف بقي للتّاريخ، حيث توجّه إلى معسكر الحسين وهو يقول: «اللّهمّ إليك تبتُ فَتُبْ عليّ، فقد أرعبتُ قلوبَ أوليائك وأولاد بنت نبيّك». وتاب الحرّ واستُشهد، وأعطاه الحسين وسام الشّهادة: «**صَدَقَتْ أُمُّك عندما سمّتك حراً، فأنت حرّ في الدّنيا وسعيد في الآخرة**».

ثورة التوّابين

وبعد أن هزّ زلزال عاشوراء أرض كربلاء، بدأت تردّدات ما حصل تصل إلى كلّ الأرجاء، وستشهد الكوفة ثورةً عنوانها النّدم، وهي ثورة التوّابين، لتكون

أوّل انتفاضة مهمّة بعد ملحمة كربلاء، أسّست لثورات لاحقة، وكسرت حاجز الخوف في نفوس الأمّة.

لكن، لماذا انطلقت ثورة التوّابين من الكوفة، وليس من مدينة أخرى من المدن والحواضر الإسلاميَّة؟

هذا لأنّ الكوفة تحسّست أكثر من غيرها ثقل الذّنب ومرارة النّدم، باعتبارها الجهة المسؤولة عن خذلان نهضة الحسين عليه السلام، وهي الّتي دعته للخروج، وألحّت، ثمّ تقاعست، وانقلبت على موقفها.

أيّها الأحبّة: في موضوع ثورة التوّابين، يجب أن نتذكّر أنَّ زعماءها الخمسة هم من أصحاب عليّ عليه السلام، تزعّمهم سليمان بن صُرد الخزاعي، وهو من سكّان الكوفة وكبار زعمائها، ومن بيته انطلقت رسائل دعوة الحسين عليه السلام للقدوم إلى الكوفة.

عنصر آخر ميّز هذه الثّورة، أنّها بدأت نواة صغيرة، وسلكت أسلوب العمل السرّي، واختطّت نهجها من الآية القرآنيّة الّتي أصبحت شعارها: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٤]. كان هدف الثّورة: إزاحة سلطة الأمويّين في الكوفة، معاقبة قتلة الحسين عليه السلام وملاحقتهم، تجسيد فكرة الاستشهاد في سبيل الله، وطلب التّوبة عن طريق التّضحية بالنفس. وهنا لا بدَّ من أن أعرّج على ما يتداوله البعض من تفسير ظاهريٍّ للآية، بجواز جلد الذات وأذيّتها وصولاً إلى القتل، حتّى أنّ البعض راح يبرّر من خلال هذه الآية أساليب ضرب الرؤوس وجرحها حتّى الموت. ونحن نقول إنَّ مدلول الآية هو في معرض الجهاد في ساحة المعركة، وليس في معرض التّوبة من التّخاذل والهروب من ساحتها، ولهذا تفصيل.

بعض المؤرّخين يصف ثورة التوّابين بأنّها كانت مجرّد حركة انتحاريّة، ربما

لأنّ الإعداد للمعركة جاء سريعاً تحت تأثير حماس قادتها عند بدء الثّورة. وهناك أكثر من ظرف في تلك الفترة، أدّى إلى عدم تحقيق أهدافها رغم نصاعة منطلقاتها، حيث إنّ موازين القوى لم تكن متكافئة، وبقي التوّابون وحدهم حتّى حسم الأمويّون المعركة لصالحهم.

وصحيح أنَّ ثورة التوَّابين فشلت على المستوى العسكريّ، ولكنّها كانت فاتحة ثورات قام بها فيما بعد المختار الثّقفي، الّذي تمّت على يديه ملاحقة قَتَلَةِ الحسين عليه السلام وقتل أغلبهم، وكذلك كانت بعدها ثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، وغيرهما الكثير...

المهمّ أنّ ثورة التوّابين كانت ثورةً على مستوى الذّات، وأصبحت حالة جهاديّة، بغضّ النّظر عن قصور أدوات التّغيير لديها، ولكنّ هذا لا يقلّل أبداً من قيمتها الكبرى في تركيز مفهوم التّوبة بمعناها الحقيقيّ، وهذا ما عبّر عنه التوّابون في دعائهم، عندما انطلقوا في بداية تحرّكهم نحو الشّام لمواجهة جيش ابن زياد: «اللّهمّ إنّا قد خرجنا من الدّيار والأموال، وفارقنا الأهلين والأولاد، نريد جهاد الفاسقين المُحلّين الّذين قتلوا ابن بنت نبيّك، فتُبْ علينا وارزقنا الشّهادة يا أرحم الراحمين».. اللّهم إنّا نعلم أنّه لو كان الجهاد معهم بمطلع الشّمس أو بمغرب القمر أو بمنقطع التّراب، لكان حقّاً علينا أن نطلبه حتّى نناله، فإنّ ذلك هو الفوز العظيم والشّهادة الّتي ثوابها الجنّة». وانطلقوا للمعركة، وبالفعل استُشهد أكثر جماعة التوّابين، وعلى رأسهم الصّحابي سليمان بن صُرَد الخزاعي.

وتبقى لنا الدّروس والعبر

أيّها الأحبّة: إنَّ العودة إلى هذا التّاريخ، وإلى أيّ تاريخ، لن تثمر إلاّ إذا كانت من أجل قراءة الحاضر من منظور ما حدث، واستخلاص الدّروس والعبر.

ـ ومن أهمّ هذه الدّروس، عمليّة النّقد الّتي مارسها «التوّابون»، عندما التفتوا

إلى نقاط الضَّعف في شخصيَّاتهم لمّا تخلّوا عن نصرة الحسين عليه السلام.

فالنّقد الذّاتيّ، أيّها الأحبّة، يحتاج إلى الجرأة، والمؤمن الحقّ هو الّذي يتمرّد على أيّ حاجة تذلّه وتكبّل إرادته، والتوّابون بلغوا القمّة في جرأتهم هذه.

ـ والدّرس الثاني، هو أنّك عندما تمارس نقد سلطة أو واقع أو ظاهرة ما في مجتمعك وراء باب مغلق، فسيظلّ هذا النّقد فقّاعة هواء إذا لم يتحوّل إلى موقف أو مشروع تحرّكه.

إنّ مجتمعنا، يعاني الكثير من ظاهرة النّقد السّلبيّ هذه، في الصّالونات وجلسات الثرثرة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، لا بل أصبح هذا النّقد السلبيّ أسلوباً للتّنفيس تفتعله جهات الفساد والانحراف، وأوجدوا وسائل إعلاميّة لهذا الغرض.

ـ ومن دروس هذا التّاريخ الّذي ينطبق على واقعنا بشدّة هذه الأيّام، هو أهمية الوعي والتّخطيط لإنجاز أيّ تغيير مأمول.

كانت ثورة التوّابين ثورة نقيّة طاهرة، ومن يقرأ خطب زعمائها وأقوالهم، يلمس حرارة إيمانهم، وإصرارهم على إنجاز أهدافهم. لكن، هل تُغني النيّة الصّادقة، عن الوعي والتّخطيط لإنجاح أيّ تحرّك؟

الثورة ليست انفعالاً، ولا ضجيجاً، وأيّ تغيير يسلّم قِيَادَه للحماسة المتفلّتة من عقال التّخطيط، يصل دائماً إلى الفشل.

والتّغيير الّذي لا يجتثّ الفساد من جذوره، لن يكون سوى عمليّة تنظيف مؤقّتة.

تعالوا إلى أن نداوي أمراضنا بدواء التّوبة: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ـ أن نتوب أفراداً عن الذّنوب والآثام من كلمةٍ هنا أو غيبة هناك أو نميمة أو حسد أو ظنٍّ بسوء، وأن نعمل ليقبل الله توبتنا، وأن يمدَّ بعمرنا، من أجل أن نختم أيّام عمرنا بتوبةٍ، وليس بذنوب نحملها أثقالاً على ظهورنا.

ـ أن نتوب من عدم نصرتنا لمظلومين ظُلِموا بحضرتنا، أو من عدم رفعنا صوت الحقّ في وجه الظّالمين، أو لأنّنا لم نعمل للتّخفيف عن معذّبين أو حلّ مشاكلهم.

ـ أن نتوب إلى الله من تقصيرنا كأمّة يُريدها الله أن تكون خير أمّة أُخرجت للنّاس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وليس العكس، نأمر بالمنكر وننهى عن المعروف، نمجّد الضّعف وننهى عن القوّة، نقدّس التخلّف ونمنع التجدّد والإبداع...

ـ أن نتوب إلى الله من تفرّقنا، من تباعدنا وتمزّقنا، وهو القائل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

كم نحتاج، إلى وقفاتٍ للتّوبة وأرطالٍ من الدّموع تطهّر أنفسنا مما تستحلّه أيدي المسلمين من دماء بعضهم البعض، ومن أموالهم وحتّى من أعراضهم؟

كم نحتاج إلى أن نسكِب دموع الحرقة والخجل، عندما نرى أنَّ انتهاك المسلم لأخيه المسلم بات يُجاهر به في واقعنا على الملأ، وبات يُصوَّرُ ويُعرَضُ على الهواء مباشرةً؟

تعالوا ونحن نعيش ذكرى عاشوراء، ذكرى الانتهاك الأكبر لِحَرَم رسول الله ﷺ ولرسالته، نوفّر دموع النّدم على ذنوب التّخاذل بحقّ بعضنا البعض، بحقّ قضايانا المصيريّة، بحقّ أمّتنا.

لا نريد أن يخجل التّاريخ منّا، ولا أن يخجل أولادنا أو أحفادنا منّا، لا نريد أن

تخجل الإنسانيَّة منَّا، ولا أن تتبرّأ منَّا كما تبرّأت من يزيد وأعوانه.

أيّها الأحبَّة: بالتّوبة نصفّي عقولنا، وبالتوبة نطهّر قلوبنا وكلّ واقعنا، وبها نحصل على ما وعدنا الله به من حبّ وعطف ورحمة: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

* * *

لماذا الإصرار على الإحياء؟

ويبقى السؤال لدى الكثيرين: لماذا نُصرُّ على إحياء ذكرى حدثٍ وقع قبل أربعة عشر قرناً؟ ولماذا نُصرُّ على استعادتها ما دامت الأحداث هي نفسها، والقصّة، هي ذاتها والمجالس هي نفسها، والبرامج هي ذات البرنامج.

لماذا كلُّ هذا؟ هل هي طقوس اعتدناها؟ أم هي العاطفة الجيّاشة التي شكّلت وجداننا، وأصبحت جزءاً من كياننا؟ أم أنّ هذه المناسبة هي ضرورة، هي حاجة الآن، وفي كلِّ مرحلة، كما كانت حاجة في مرحلة حدوثها.. فعندما وقعت حادثة كربلاء قبل أربعة عشر قرناً كانت ضرورة.. كان الإسلام في مهبِّ رياح بني أمية، في ظلِّ مجتمع إسلامي رَكَنَ إلى الظلم، وغلّب دنياه على دينه كما أراد له الأمويون..

فيزيد الرجل الفاسق الفاجر، يُراد له أن يتولّى أمر المسلمين، الحقّ بات لا يُعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه، السُّنة قد أُميتت والبدعة قد أحييت. البوصلة تغيّرت والباطل أصبح حقّاً والحقّ بات باطلاً. والذين يتحكّمون بمصالح الناس لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله...

لقد بات المعيار هو معيار عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد، وباتت لغة

الدينار هي السائدة، ولغة الخوف من السيف هي الحاكمة للواقع. الناس باتوا عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديانون.

كي لا يذهب ما بناه الرسول سُدَىً

للأسف هكذا كانت حال الأمّة.. أمة رسول الله ﷺ تنحدر إلى الدرك الاسفل... وكلّ ما بناه الرسول سيذهب سدى..

لهذا انطلق الحسين عليه السلام ليهزّ كل هذا الواقع، ليغيّره، وكان هذا ضرورة وواجباً، ولهذا أطلق نداءه الأول: «**إني سمعت رسول الله يقول: مَنْ رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلّاً لحرام الله ناكثاً لعهده يعمل في عباده بالإثم والعدوان فلم يغيّر بقول أو فعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله**».

لقد انطلق الحسين عليه السلام من موقعه كسبط لرسول الله ﷺ، ومن مسؤوليّته كإمام، ومن موقع عزّته كمسلم، عبوديّته تنبع من عبوديّته لله وحده.. إذاً كيف يرضخ فيبايع شخصاً كيزيد؟

لهذا يحدّد الحسين عليه السلام موقفه: «**والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد**».

الإحياء ضرورة وحاجة

من هذه الرؤية وقياساً إلى واقعنا، أمس واليوم وغداً، نرى أنّ عاشوراء هي ضرورة، وحاجة على أكثر من مستوى.

المستوى الأول: هو مستوى أتباع أهل البيت عليهم السلام، فالحسين عليه السلام إمام يتولّونه، ويلتزمونه فكراً وقدوة ، وسلوكاً، وعملاً. وإحياء أمره واجب عليهم

وهم ملتزمون بذلك كما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام..

وعلى المستوى الثاني: عاشوراء هي ضرورة بالنسبة للمسلمين جميعاً بكلِّ مذاهبهم، لأنّ أهدافها هي أهداف الإسلام ومقاصده. وأبطالها هم خير مَنْ تربّى من معين الإسلام.. فالحسين عند كلّ المسلمين وفي كلّ كتبهم ومصادرهم هو سيّد شباب أهل الجنة، هو سبط رسول الله، هو ريحانته، هو والحسن إمامان قاما أو قعدا، فمن الطبيعي لا بل الأصل أنّ كلّ المسلمين معنيّون بما جرى في كربلاء.. وغير مفهوم هذا النأي لشريحة واسعة من المسلمين عن إحياء عاشوراء واستبعاده من ذاكرتهم الجَمعيّة، وكأنَّ هذا الدم لم يُسفك في كربلاء.. ويتساءل المراقب أين ذهبت هذه العاطفة تجاه مَنْ كان الرسول لا يفتأ عن الحثِّ على حبِّه وكم قال: «**اللهم إنّي أُحِبُّه فأَحِبَّه.. رحم الله مَنْ أحبَّ حسيناً..**»

ثم إنَّ شعارات كربلاء لم تكن مذهبيّة، ولم تكن خاصّة بمرحلتها، كانت شعارات إسلامية وممتدّة على مدى الزمن، هي الشعارات التي انطلقت من القرآن ومن رسول الله: هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي الإصلاح في أمّة جدّه رسول الله، هي الإصلاح في مسيرة الإسلام.

وعلى المستوى الثالث: فإنّنا نرى أنَّ إحياء عاشوراء ضرورة لإحياء القيم الإنسانية، قيم الحرية، والعدالة، ورفض الظلم، قيم الثبات، وعدم بيع المواقف... القيم التي تلقَّفها غاندي عندما قال: «تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر» وهو الذي قال لشعبه في الهند: «على الهند إذا أرادت أن تنتصر أن تقتدي بالإمام الحسين».

عاشوراء للإنسان في كلِّ زمن

إنّنا نريد لعاشوراء أن تبقى في كلِّ هذه الدوائر، وعلى كلِّ المستويات، فلا نُغلقها، ولا نصغّرها، ولا نفصّل موسم إحيائها على حجمنا، ولا نحصر دورها

في دائرة المظلومية، في دائرة الخصومة المذهبية، بل نريدها في الدائرة الإسلامية الكبرى، ومن ثَمّ في الدائرة الإنسانية.

نقول للمسلمين: تعالوا لِنُحِ عاشوراء، نتفاعل معها، نتدارسها جميعاً، بغضّ النظر عن السياسة، وما حدث من إرباكات في الواقع على مرّ التاريخ..

وأكثر من هذا، ونقولها لكلّ العالم بكلّ أديانه وتنوّعاته، تعالوا ننهل من معين عاشوراء ما نحتاج إليه، العالم الذي يعاني الاستكبار والظلم والطغيان، لنعيد إلى العالم عدالته. ولتكن عاشوراء نقطة مضيئة لكلّ طالبي الحقّ والعدل والحرية والتغيير الحقيقي، التغيير البعيد عن الحسابات الضيّقة...

لإحياءِ مُشْرِقٍ شكلاً ومضموناً

عاشوراء نقيّة، عاشوراء صرخة من أجل الحرية فلنسهّل انسيابها عبر التاريخ والأزمنة. إن ما قام به الحسين لا بدّ أن يجد مكانه في حركة الأنسان أينما كان، والمطلوب أن نطلقها إلى الأفق الواسع، لأجل ذلك عاشوراء تحتاج إلى دراسة مضمونها جيداً وإعادة قراءة هذا المضمون. وبحاجة لدراسة شكل إحيائها وتطويره ولعلّ ذلك هو الضروري لأنّه في أحيان كثيرة، فإنّ الشكل قد يعيق الوصول إلى المضمون.

لهذا يترتّب علينا التركيز على متابعة الجهود، التي بُذلت من أجل تنقية السيرة بدءاً من جهود السيد محسن الأمين، إلى الشيخ مطهري، إلى السيد فضل الله (رض) وغيرهم الكثير...

علينا أن لا نخاف على عاشوراء إذا ما تمّت الدعوة إلى إعادة قراءة أحداثها، لا يخافن أحدٌ على العاطفة التي لعاشوراء في قلوب المؤمنين.. ولا نخاف على فكر عاشوراء ..على العكس علينا أن نخاف على عاشوراء من الزيادات التي تُزاد

عليها وتُضاف من دون حسيب ولا رقيب.

نعم هناك قداسة لعاشوراء كما حصلت، ولكن ليس شكل الإحياء ولا مضمون الإحياء مقدّساً، ويكفي دليلاً على ما نقول، أنّنا في السابق، عندما كنّا صغاراً كنّا نسمع في مجالس عاشوراء أنّ فلاناً من أصحاب الحسين قتل ألفاً أو ذاك قتل ألفاً والبعض كان يصل إلى ثلاثين الفاً وهكذا... أما اليوم فنلاحظ أنَّ بعض هذه المبالغات قد غاب عن المجالس بفعل النقد ورفض المبالغة والزيادات، كذلك فإنَّ فتاوى تحريم التطبير وضرب الرؤوس قد خفّفت كثيراً من هذه الممارسات، فهل تأثّرت عاشوراء؟

لقد بقيت عاشوراء وزاد جمهورها وأصبحت أكثر تأثيراً وفاعلية. وستبقى كذلك، لأنّ عاشوراء تختزن في داخلها إمكانية البقاء والاستمرار، وهي عصيّة على النسيان فهي تجذِّر حضورها في القلوب والوجدان والروح. وعاشوراء عابرة للمذاهب والأديان والمناطق.

علينا أن نتابع هذه المسيرة، مسيرة تنقية السيرة وأيضاً تنقية لسان الحال (وكأنّي به) الذي بات تحت عنوانه تُقوّل الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته ما لا يريدون. ولعلّ هذا يسيء لعاشوراء في الوقت الذي يكون فيه هدف القارئ أن يخدمها.

مطلوب منّا جميعاً ـ وحفظاً لعاشوراء ـ أن نعيد النظر بأساليب التعبير عن حبّنا بما قد يسيء إلى أهداف عاشوراء وإلى فكر عاشوراء وإلى شخصيات عاشوراء..

عاشوراء مدرسة القضايا الكبرى

ولنجعل من عاشوراء منبراً للوعي السياسي والديني، فَمَنْ يتربّى في مدرسة عاشوراء لا يمكن له أن يتخلّى أو يخذل القضايا الكبرى، والويل لأمّة أفرادها لا يفكّرون إلا في القضايا الصغيرة والهامشية..

لنجعل من أيام عاشوراء فرصة لتعميق وحدتنا وليس لتفرّقنا وشرذمتنا. فبرغم كلّ المعوقات والتعقيدات دعاؤنا أن تخفّف عاشوراء من هذا التشنّج الذي نعيشه ويقلقنا جميعاً..

لنجعل من عاشوراء الخزّان الذي يزوّدنا بكلّ طاقة وعناصر القوة لنواجه الاستكبار العالمي الذي يُخيّرنا بين السلّة والذلّة، يريدنا أن نكون أذلّاء، وهيهات منّا الذلّة. وبذلك نجعل من عاشوراء موسماً وورشة عمل فيها تتجدّد الحياة فينا، وتنتشلنا من جمودنا وتكون خير دواء لأمراضنا، فنكسب خير الدنيا وخير الآخرة.

* * *

تعود إلينا عاشوراء وهي تحمل معها جراحاتها وآلامها ومعاناتها ونَزْفَ الدماء فيها، لكنّها وبالقدر نفسه تحمل كلّ عناوين البطولة والتضحية والثبات والشجاعة والإقدام حتى الاستشهاد...

إنّها تعود لنجدّد العهد بالوفاء لكلّ قيمها، قيم الإسلام: العدل مقابل الجور والظلم، الإصلاح مقابل الفساد، عهد الله مقابل نكثه، حلال الله مقابل حرامه، الإمامة الحقّة مقابل السلطة الباطلة...

إنّ كلّ هذه القيم يستحضرها الحسين عليه السلام وهو يقول: «**أيّها الناس من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلّاً لحرم الله، ناكثاً لعهده، يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول أو فعل، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله... ألا وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، واستأثروا بالفيء وعطلوا الحدود، وأنا الحسين بن علي أحقّ مَنْ غيَّر...**»

إنّنا في هذه الذكرى نستعيد مشهد الحسين عليه السلام وهو يواجه السيوف والرماح التي كانت تُصَوّب إليه، ليؤكّد معنى العزّة رفضاً للذلّ، وقيمة الحرية رفضاً للعبودية، وعظمة الموت وسعادته لرفض حياة الظلم..

أليست هذه القيم هي التي أراد أن يقيمها حين يقول: «**والله لأعطيكم بيدي**

إعطاء الذليل ولا أُقرّ لكم إقرار العبيد فلا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً».. «هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله».

إنّ هذا المشهد في كلّ مواقفه عليه السلام كان يتردّد صداه، وينعكس قوة وحماسة ورفعة وسموّاً في نفوس كلّ شباب وشيوخ ونساء وأطفال عاشوراء.

إنّ كلّ ذلك، صَنَعَ من عاشوراء تلك الملحمةَ التاريخيةَ التي حفرت في النفوس آلاماً خفّفت من كلّ آلام المجاهدين، والتي استأصلت من العقول أفكار الرضوخ للأصنام البشرية المستجدّة، والتي زرعت في القلوب من القيم ما يُلهم كلّ الثائرين والأحرار والمقاومين...

أيّها الحسينيون.. أيّتها الزينبيات لقد قام الحسين عليه السلام ومَنْ معه بمسؤوليّاتهم عندما حفظوا الإسلام فكراً وعاطفةً وسلوكاً.. وأعادوا إلى الأمّة حضورها وحيويّتها وصنعوا تاريخاً مشرقاً... مؤدّين ما عليهم من مسؤوليّات.. لكن يبقى السؤال الذي يُطرح دائماً في كلّ موسم عاشوراء... أين موقعنا من عاشوراء..

المعنى الرساليّ لحبّ الحسين عليه السلام

ما هي طبيعة العلاقة التي تربطنا بالحسين عليه السلام في حياتنا الشخصية وفي الحياة العامة.. هل هي علاقة قائمة على الطقوس التقليدية، فلا تتجاوز العيش لأيام في إحياء مجالس العزاء، تقتصر العلاقة بهم على إظهار العاطفة ومشاعر الحزن والعطف والمحبّة لأبطال عاشوراء، فيما تبقى حياتنا بقية أيام العام بعيدة عن كلّ المعاني الكبيرة التي أرادت عاشوراء إطلاقها..

إنّنا ـ أيّها الأحبة ـ نريد لعلاقتنا بعاشوراء أن تكون أعمق من ذلك.. نريدها عاطفة صادقة راسخة لكلّ ما أراد الحسين التضحية من أجله، عاطفة تتحرّك سلوكاً ومواقف تجاه كلّ ألوان الجور والظلم في الحياة.. نريد لحبّ الحسين أن يكون حبّاً يمتد إلى حبّ عليّ والزهراء عليهما السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وإلى أن يتحوّل

حبّاً لله ورسالته فيملأ قلوبنا، لأنّ الحسين قدّم كل حياته في سبيل الله حبّاً لله ولأجل رسالة الله.. ترك كلّ شيء.. ضحّى بالأهل والأولاد والأحبّة، لإعلاء دين الله.. أليس هو القائل:

«إلهي تركتُ الخَلْقَ حُبّاً في هواكَ وأيتمتُ العيالَ لكي أراكَ
فلو قطعتني في الحب إرْبَاً لَمَا مالَ الفؤادُ إلى سواكَ».

وحين يصبح لحبّ الحسين عليه السلام معنى رساليٌّ يربطنا بالله ورسالته، فلن يبقى حبّاً حبيس الوجدان... فعندما نؤكّد على معنى الحبّ الرسالي، يعني أنّنا نتعقّل معنى هذا الحب... أن نفهم معنى الرسالة التي دَفَعَت الحسين عليه السلام إلى الشهادة... أن ندرس الواقع الذي عاشه الحسين عليه السلام لنعرف الأسباب التي دفعته للثورة.. وأن نعيَ الأهداف التي أراد أن يصل إليها.

أيُّها الأحبة.. حين يحمل حبّنا للحسين عليه السلام كلّ هذه الأبعاد الرسالية والإنسانية والواقعية، فإنّه يصبح حبّاً حقيقيّاً.. حبّاً يدفعنا لفهم ديننا.. وفهم واقعنا.. لنتحمّل مسؤوليّاتنا الرسالية.. وعند ذلك سوف تشعرون أنّ الحسين عليه السلام سيعيش في كلّ تفاصيل حياتنا، ليكون الحسين عليه السلام هو الصورة التي نتمثّلها في صلاتنا وعباداتنا ومعاملاتنا وفي كلّ مواقفنا.. في تأكيدنا ورفضنا... في سِلْمنا وحربنا..

إنّ المعنى الحقيقي لموالاة الحسين عليه السلام، أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما فعل... أن نسعى لإصلاح أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله كما سعى، فننقلها من الجهل إلى الوعي، ومن الضعف إلى القوة...

أن نعمل لتكون أمّة عزيزة لا تستسلم لطاغوت ولا تخضع لإغراء... أي أمّة لا تُعطي إعطاء الذليل ولا تفرّ فرار العبيد.. أمّةٌ تقف في وجه كلّ فساد فكري وثقافي وديني واجتماعي وسياسي، أمّة تواجه كلّ الذين يريدون الإساءة إلى مصالح العباد والبلاد.

أمّةٌ تكون عيونها محدّقة بالله لا تأبه لكلّ الآلام والمعاناة.. أمة يكون شعارها: «**هوّن ما نزل بي أنه بعين الله**» أمّة تقدّم التضحيات بوعي... أمّة تعمل لأجل الله لا لعصبيّة طائفيّة أو حزبيّة أو سياسيّة أو لمصالح ضيّقة... أمّة تهتدي بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللهمّ إنك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لِنَرِدَ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطّلة من حدودك**»[1].

علاقة لا يحكمها الانفصام

لا نريد لارتباطنا بالحسين عليه السلام أن يكون منقوصاً، لذا علينا أن نفهم معاني حركته واستشهاده ومأساته، أن نعي سيرته، ونتفكّر في أبعاد ثورته وعمقها وكيف حقّقت أهدافها.. إنّنا لا نريد لعلاقتنا بالإمام الحسين عليه السلام أن تكون مشوَّهة، كأن يقتصر تعبيرنا على بعض مظاهر الحداد الشكلية لنقنع أنفسنا بأنّنا أدّينا الوفاء للحسين عليه السلام..

الوفاء الحقيقي للحسين عليه السلام هو أن نعيش مشاعر الحزن والألم لتتجذّر كلّ قيم عاشوراء وأهدافها في قلوبنا ونفوسنا، وتنعكس في سلوكنا ومواقفنا تقوىً وورعاً وزهداً وقوّة ورفعة وسمواً وعزّة وإيثاراً، وإلا نكون كأولئك المنافقين الذين قال عنهم الفرزدق: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك».

إنّنا لا نريد لعلاقتنا بعاشوراء أن يحكمها الانفصام، بأن نتوقّف عن المعاصي في أيام عاشوراء لنعود بعدها إلى أطماعنا وشهواتنا والاستغراق في ملذّات الدنيا وارتكاب المعاصي على حساب مبادئ الحسين عليه السلام وعلى حساب رسالة الحسين عليه السلام.. وعلى حساب الله... وهل يقبل الحسين عليه السلام منّا مثل هذه

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٩.

العلاقة... ألم يُضَحِّ الحسين عليه السلام بنفسه وعياله، لأنّ الناس من حوله «**اتبعوا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأحلّوا حرام الله وحلّلوا حرامه**»[1].

كان الله محور حياة الحسين عليه السلام، فليكن الله محور حياتنا، وإكرام الحسين عليه السلام هو في إكرام الله بأن نمتنع عن معاصيه في أيام عاشوراء وفي سائر أيام السنة..

إنّ علاقتنا بالحسين عليه السلام يفترض أن نعبّر عنها بأفضل ما يكون... أن نُحْسِن تقديم عاشوراء إلى كلّ العالم.. أن نوسّع جمهورها فلا نضيّقه من خلال أساليبنا في تقديم عاشوراء إلى العالم...

إنّنا لا نريد لعاشوراء أن تبقى في دوائر خاصة، بل نريدها أن تصل إلى كلّ المسلمين وإلى غير المسلمين... لأنّنا نريدها أن تكون مناسبة للدعوة إلى الله وإلى هذا الخطّ الذي يحمل كلّ قيم الحقّ والعدل والحرية والمحبّة.. لا إلى تنفير الناس منه.

وهذا ما يدعونا إلى أن نبحث عن طرق جديدة في التعبير: في الفنّ بكلّ ألوانه والأدب بكلّ مجالاته، والفكر بكلّ معانيه، لنطرح كلّ هذه القيم بالطريقة التي يمكن للعالم أن يستشعر حرارتها الإنسانية، ويحسّ بانفعالاتها السامية ويتعقّل معانيها ودلالاتها، وإلا فسوف تبقى عاشوراء حبيسة جماعة وأسيرة مرحلة، وسمة خاصة بفئة، لا نموذجاً إنسانياً يمكن الاهتداء به، أو فكراً يستحقّ التفاعل معه، أو أفقاً ينبغي التطلّع إليه..

إنّ عاشوراء باقية لأنّها تمتلك القدرة على الاستمرار من خلال فكرها وشخصيّاتها وشعاراتها والدماء التي نزفت على أرضها والجراحات التي حصلت فيها.

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ١٤١-١٤٢.

لكنّنا نخاف عليها إنْ حرفناها عن مسارها بالاستمرار في ممارسات سلبيّة منفرة... إنّنا لن نتوقف عن مناقشة هذه السلبيّات وانتقادها.. لأنّنا نريد لعاشوراء أن تكون مشرقة إشراقة الإسلام.. إشراقة محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وسائر أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

* * *

بمجرّد انتهاء معركة كربلاء، حاول الأمويون وكلّ مَنْ سار في فلكهم العمل على طمس معالم آثارها.. وإخفاء معالمها، وإلباسها ثوب الشرعية أو تبريرها.. واستخدموا لذلك كلّ الوسائل: الأبواق، والكتّاب وحتى الفقهاء، هذا إلى جانب الترهيب في كمّ الأفواه المعترضة والناقمة على ما جرى للحسين عليه السلام وأصحابه.

كان الأمويون يعتقدون أنّ هذه الفاجعة ستُطوى صفحتها بمجرد أن تُدفن الأجساد الطاهرة الشاهدة على جرائمهم، وستزول معالم قبورهم وتساهم الأيام بنسيانها... لكنّ الأمر لم يحصل، فقد بقيت هذه الفاجعة حاضرة في العقول والقلوب والضمائر.. وحُفِظت شعاراتها وبطولاتها وتضحياتها وصارت عنواناً للثورات، بغضّ النظر عن نجاحها أو فشلها، وشكّلت في الوقت نفسه إلهاماً وقيمةً إنسانية كبرى للاعتراض على كلّ ظلم وجور وطغيان.. وصارت رمزاً لكلّ إصلاح وتغيير..

لقد ساهمت كلمات السيدة زينب عليها السلام ومواقف الإمام زين العابدين عليه السلام ونساء كربلاء وحتّى أطفالهم، خلال مرحلة السبي وبعد ذلك في المدينة، في إثارة أجواء الحزن والوعي لعدم طمس جريمة الحكم الأموي وقول زينب عليها السلام الواثق بالله: «**كِدْ كيدك واسع سعيك فإنّك والله لن تمحو ذكرنا ولن تميت وَحْيَنا**»[1]. هذه العبارة التي أطلقتها زينب شقّت مسيرة إحياء كربلاء طريقها..

(١) مثير الأحزان ص ٨٠.

وتابع هذه الأمر أئمة أهل البيت عليهم السلام.. حيث حرصوا على أن يقوموا بأنفسهم ـ وحسب ما توفّر لهم من ظروف ـ على إحياء ذكرى عاشوراء.. وإظهار حزنهم.. ودعوة الشعراء إليهم لنظم قصائد حزينة تثير الشجى والأسى على فلذة كبد علي وفاطمة وآل بيته عليهم السلام وأصحابه.. وعمل الأئمة عليهم السلام على تحفيز شيعتهم والموالين لهم على إحياء هذا الأمر في بيوتهم وأماكن اجتماعهم وإظهار حزنهم..

لقد شهد إحياء عاشوراء لدى أتباع أهل البيت مراحل عديدة وأشكالاً مختلفة حتى في أشدّ الأوقات حراجة.. وسيطر شعر المراثي والنعي على أساليب الإحياء، والتي كان أصحابه لا ينسبونه لأنفسهم بسبب الخطر وعُرفوا يومها «بشعراء الجنّ»..

المهم أنّ الإحياء لم يتوقّف أبداً.. ولعلّ في التعبيرات السرية ما هو عفويّ وطبيعي ومليء بالشجن والمشاعر الفيّاضة بعيداً عن الاستعراضات العلنية والشكلية والمسرحية التي دخلتها مراسم عاشوراء في مراحل لاحقة. وخاصة مرحلتنا حيث دخل إحياء عاشوراء مرحلة تصنيع وتمهين (مهنة) بعيداً عن التلقائية والعفوية التي كنا نشهدها في الخوالي من الأيام.

الإحياء يتأثّر بالظروف والعادات

ومن الطبيعي، كشأن أيّ ارتباط بمسألة أو حدث ممتدّ في عمق التاريخ وعمق وجدان الناس، فإنّ التعبيرات عنه تختلف في كلّ مرحلة وإن لم يكن اختلافاً جذرياً.. إنّما من الطبيعي أن تتأثّر هذه التعبيرات والإحياءات بالعادات الثقافية، وبالأنماط السائدة للتعبير عن الحزن والمآسي لدى هذا الشعب أو ذاك..

وهو لأمر مستحسن، بأن ينسجم كلُّ مجتمع مع نفسه بطريقة تعبيره وبالسياقات القائمة لديه... وهذا يشكّل غنىً وتنوّعاً لمراسم إحياء عاشوراء.

لهذا من الطبيعي أن يضيف كلّ مجتمع لعاشوراء في شكل مراسمها حسب

ما يلبّي حاجاته العاطفية، ويحقّق لها المقبولية.. دقّقوا في الأمر فسرعان ما تكتشفون أنّ تعبيرات الحزن والنواح وتعبيرات الصوت والجسد وحتى شدّة الحزن والاستغراق فيه، تختلف من مكانٍ إلى آخر أو بين الشرق والغرب وبين العرب وغيرهم.

لقد كان للمخيال الشعبي دوره في إكساء نواة مراسم عاشوراء من عنديّاته.. وما يثبت ذلك، هو، هذه التوسعة للأحداث، ممتدّة على عشرة أيام، وحتى للأربعين أو آخر شهر صفر. فيما كلّنا نعرف أن عاشوراء حدثت في ساعات قليلة وسريعة.. والمادة التي يتمّ تقديمها، من المؤكد أنّها عبارة عن إضافات.. ولنسمّها إضافات بحسن نيّة وإبراء للذمّة...

ما قصدت قوله أيّها الأعزاء، هو أن ما حدث في كربلاء ثابت ولا يمكن النقاش فيه: أهداف الحسين عليه السلام... استشهاده.. شعاراته.. ومنطلقاته.. والقيم التي رسّخها كالصبر والتضحية والثبات والشجاعة وحب الله. كما أنّ المشكلة ليست في التعبيرات عن هذه الذكرى التي نرى أنّ من الضروري أن تتنوّع وتتبدّل، ولكن المشكلة هي في أن تصبح هذه التعبيرات مقدّسة بحيث لا يمكن المساس فيها أو نقاشها.. والمشكلة الأكبر هي عندما تحرف هذه الأساليب عاشوراء عن مسارها... فتصبح مقولة ما ـ خَرَجَت صدفة أو استعارها أحد الخطباء وأدخلها في مجلسه رغبة منه في إثارة العاطفة ـ بمثابة جزء لا يتجزّأ من مراسم عاشوراء.. ويصبح النقاش في أشعار قديمة لا تمّت حتى لغة، إلى الحاضر، هو من المحرّمات.. فيما أصبحت هذه الأشعار كليشيهات جامدة، مكرورة، أبعدت الحيوية عن إمكانية إغناء عاشوراء بكلِّ فيضٍ جديد.

وكذلك الأمر في الروايات والسيرة: مثلاً وجود أم علي الأكبر، يُبنى عليها مقاطع ومشاهد وأحداث، وبعد ذلك يأتي مَنْ يؤكد من الباحثين الغيورين أن ليلى أم علي الأكبر لم تشهد كربلاء فتُحدث صدمة ويفقد المجلس مصداقيته... وهكذا عرس

القاسم وغيره من الكلمات التي تُنسب للحسين عليه السلام كقوله للأعداء: «اسقوني شربة ماء» والتي تخلّ بصورة الإمام الحسين عليه السلام أو بخطّ أهل البيت عليهم السلام الذين في حياتهم لم يعيشوا الذلّ أو الشخصنة أو الفردية أو قلة الصبر..

مراجعات مشهودة

لهذا أيّها الاحبة، ورأفة بعاشوراء، من الضروري أن تتمّ مراجعة مضامين الإحياءات، وخاصة كلّما امتدّ الزمن وبعدنا عن الحدث. لأنّه يخشى أن تتسرّب إلى عاشوراء ما هو ليس منها أو مناقضٌ لها.. والمراجعة المطلوبة هي ليست للحدث نفسه ولا لمأساويّته وبشاعته وفظاعته، إنّما هي لمفردات الإحياء والتي هي بشرية وغير معصومة.. ولا يخافنّ أحد أو يخشى على عاشوراء من ذلك..

ومن المعلوم أنّ المراجعة رافقت مراحل إحياءات عاشوراء طوال التاريخ، مثلاً من العصر الحديث السيد الأمين كتب مؤلفه «التنزيه لأعمال التشبيه» لتهذيب مظاهر العزاء ونقد التطبير، وأيضاً هناك الميرزا حسين النوري صاحب «مستدرك الوسائل» الذي ألّف كتابه «اللؤلؤ والمرجان» ونظر فيه لضرورة توفّر شرطين أساسيين في قرّاء العزاء قبل ارتقائهم المنبر تهذيباً لأدائهم، فوضع في الدرجة الأولى شرط الإخلاص، وفي الثانية شرط الصدق، كاشفاً من خلاله عمّا يتلبّد خلف الستار من رياء وكذب. طبعاً وهناك الشهيد مطهّري في كتابه «الملحمة الحسينية» التي أضاء فيه على عدّة من مغالطات قرّاء العزاء التاريخية، والسيد فضل الله في إصداره فتوى بحرمة التطبير وضرب السلاسل وأذية الجسد، لما فيه من إيذاء غير مبرّر وإساءة لثورة الحسين وأهدافها ورموزها.. ثم السيد الخامنئي الذي له أيضاً فتواه في هذا الخصوص.

ومن المؤسف، كما من الإفلاس أن يواجَه كلّ مَن يدعو لهذه المراجعة بالاتهام والتشكيك في عاطفته وولائه ومحبّته، علماً أنّ مَن ينقد نقداً علمياً موضوعياً هو أحرص على عاشوراء من غيره.. ولكن العصبية والجهل تعمي العيون...

قواعد ينبغي مناقشتها

ولا بدّ أن نُذكّر أنّ المراجعة ضرورية من ناحية تربوية، لأنّه سياتي جيل ويطرح تساؤلات ولن يجد الإجابات. ولا يمكن الاكتفاء بالقول له إنّ هذه منطقة مقدّسة لا تُمس.. هذا لن يُقنع أجيالنا المفتوحة على كلِّ الآراء والأفكار والأبحاث ونحتاج أن نزوّدهم بإجابات منطقية...

وحقيقة الأمر، أيها المواسون وأيها الموالون لآل البيت عليهم السلام، أنّ ما يحتاج إلى المناقشة هو ليس المُخْرجات أو النتائج، إنّما هي مجرد مؤشر، إنّما ما يحتاج للنقاش هي القواعد التي تقف خلف هذه الإشكالية والتي أُوجز بعضها في ثلاث نقاط سريعة:

أولاً: تعميم قاعدة التسامح في أدلّة السُّنن: لتشمل القضايا التاريخية والفكرية والعقيدية.. وهذا التسامح وعدم التدقيق ساهما في إدخال عدد من المفاهيم والأفكار المغلوطة في قضايا كثيرة، بعضها حسّاس كموضوع الإمام الحسين والذي يستلزم تدقيقاً تاريخياً وبحثاً معمّقاً لأهمّيته وأثره في وجدان الناس...

ثانياً: تطبيق القاعدة (الميكافيللية): «الغاية تبرّر الوسيلة» (فكَوْن الغاية هي التعبير عن العاطفة للحسين عليه السلام وإبراز عاشوراء، فلا مانع من الإضافات والاسترسالات).

واذا واجهت أصحاب هذا المنطق بنصوص عدم جواز الكذب أجابوك بأنّ هذه النصوص تجري عندما يكون الكذب على أهل البيت عليهم السلام وليس لهم أو لصالحهم (عندها الكذب لا مشكلة فيه).. ومثل هؤلاء مَنْ كان يضيف في أحاديث ثواب قراءة سور القرآن ويعلّل ذلك بالقول: إنّي رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن فوضعت الأحاديث لتحبيب الناس بكتاب الله.. وهذا، أيها الأحبة، غلوّ وهو مرتبة عليا من مراتب الكذب.. وقد حذّر منه الأئمة خصوصاً بشكلٍ واضح وصريح، ثم إنّ هذا

الغلوّ هو مَا سهّل بروز قاعدة «كلّ شيء ممكن على أهل البيت عليهم السلام» نظراً لموقعهم عند الله... وجرت القاعدة للأسف من دون ضوابط علمية.

والنقطة الثالثة: والتي شكّلت مصدراً للإضافات غير الواقعية، هي التوسع في دائرة لسان الحال، وكأني به يقول، والتي سبّبت خلطاً ما بين لسان حال فِعْليّ للإمام عليه السلام أو غيره من شخصيات عاشوراء، وبين أن يكون اللسان هو لسان حال الخطيب بإسقاطاته العاطفية والثقافية والنفسية. وحتى قد يكون هو لسان حال المجتمع وانعكاساً لذوقه وما يطلبه..

ولا بد هنا من عدم التقليل من الضغط الذي يمارسه الجوّ الشعبي على الخطيب الحسيني.. والذي قد يدفعه لتلبية حاجاته بمدّ الجمهور بجرعات عاطفية وغيبيّة، ممّا قد يُبعد السيرة عن صفائها المطلوب..

أيّها الأعزاء.. إنَّ الشعيرة هي العلامة.. وعلى هذا، فالشعائر الحسينيّة هي العلامات التي تعبّر عن الحسين عليه السلام، وتُظهر صورته الحقيقية، وأهدافه هي القالب الذي سيحمل مضموناً قيمياً، وسياسياً وإيمانياً.. فإن ضاق القالب على المضمون اتجهت تأثيراته إلى مكانٍ آخر: دخلنا في العصبية (وشدّ العصب) أو المذهبية والتمذهب وما إلى هنالك.. وإذا تناسب القالب مع المضمون وتمكّن أن يُظهره بشكله الصحيح بلغ التأثير مداه.. وأنتجت لنا الشعائر الكربلائية في كلّ مرحلة نماذج من الحسينيّين، الكربلائيّين، الجهاديّين الذين يحاكون في سلوكهم ومواقفهم الحسين وأصحابه وأهل بيته.

ماذا نريد من الحسين عليه السلام

ـ أيّها المواسون.. لا نريد للحسين.. أن يتحوّل فينا إلى شخص نذرف الدموع لحسابه، بل إلى إمام نقتدي به ونستلهم مواقفه..

ـ لا نريد لعلاقتنا بالحسين عليه السلام أن تتمحور فقط حول ما أصابه رغم عِظَمِ ما أصابه، بل أن نحدِّق دائماً لماذا أصابه..

ـ لا نريد لذكرى الحسين عليه السلام، أن تكون ذكرى تستعير لغتها من التاريخ وتتحرّك في التاريخ، بل نريدها سلوكاً عملياً ينتمي إلى الحاضر يتحوّل عملاً وخيراً وتضحية من أجل النهوض بالإنسان بشكلٍ راق وحضاري كأعلى ما يكون التعبير..

ـ نريد لذكرى الحسين عليه السلام أن تستدرّ منّا المواقف تلو المواقف في السياسة والاجتماع والدين، بموازاة استدرارها لدموع تُذرف بحرقة وأسى.. تعالوا نرفق كلّ دمعة بتغيير في سلوك أو موقف وفق شعارات مدرسة الحسين عليه السلام.

ـ نريد لذكرى الحسين عليه السلام في عاشوراء أن لا تكون معزولة، بل أن نربطها بجذورها الممتدّة إلى القرآن الكريم وإلى رسول الله لتبقى عاشوراء عنواناً من عناوين الوحدة الإسلامية، عنواناً تهتدي به الإنسانية..

لقد استطاعت عاشوراء، أيّها الأحبة، عندما وصلت إلينا، بدموعها وعنفوانها وقراءاتها وأفهامها ونقدها ومراجعاتها.. أن تصنع لنا الكثير.. في ثورة إيران، ومقاومة لبنان وفلسطين.. وزرعت بذور أمل في نفوس عشاق آل البيت عليهم السلام لا بدّ وأن تثمر إن أحسنّا رعايتها وسقايتها.

إنّها بوصلة لا تخيب أبداً... مَنْ يمّم وجهه شطر الحسين عليه السلام وعرفه حقّ المعرفة فاز في الدنيا، لأنّه تزوّد بحبّ الحسين عليه السلام، وفاز في الآخرة بحبّ الله: «**حسين منّي وأنا من حسين أحبَّ اللهُ من أحبَّ حسيناً**».

جعلنا الله وإياكم من المحبين العارفين والمحبّين العاملين، والمحبّين الواعين.. وعظّم الله أجوركم وأجورنا.

* * *

زينب عليها السلام تحمي المسيرة

ما إن انتهت معركة كربلاء، حتّى أخذت زينب قراراً بأنَّ البكاء على كلِّ هذه الدِّماء الغالية مؤجّلٌ، وأنَّ الوقت هو وقت عمل، فعلى الرَّغم من كلِّ الألم الَّذي كانت تختزنه، كانت مسؤوليَّتها كبيرة في أن لا تسمح ليزيد ولا لعبيد الله بن زياد ولا لعمر بن سعد بأن يدفنوا ثورة كربلاء بدفن أجساد الشّهداء، لأنَّ هذا هو ما أرادوه وما خطَّطوا له، لهذا كان واجبها أن تعرّف النَّاس بما جرى على أرض كربلاء، من جريمةٍ وحشيَّةٍ حاقدة، وتعرّفهم بمنطلقات الحسين عليه السلام وأهدافه وشعاراته، إلى جانب تعريف النَّاس بحقيقة يزيد ومشروعه التَّدميريّ للإسلام..

كانت شرارة البدء بتنفيذ وصيَّة أخيها الحسين عليه السلام، حيث إنَّها لم تشقَّ جيباً، لم تخمش وجهاً، ولم تدعُ بالويل والثّبور، ولم تهزمها المصيبة، وإن هزَّت كيانها... وقد جاء الردّ صفعةً لعمر بن سعد وجيشه، وهم يرونها تضع يديها تحت جسد أخيها، تمشي مشية أبيها أمير المؤمنين بكلِّ عزَّة، وتقول: **«اللّهمّ تقبَّل منَّا هذا القربان»**.

بعدها قامت زينب لتسلك درباً لا بديل عنه، ونهجاً جديداً في التَّعامل مع المأساة؛ لمت الشَّمل، ورعت العيال والأطفال، وعيناها دائماً كانت على الإمام

زين العابدين عليه السلام الَّذي كان عليلاً، فهو البقيَّة الباقية من نسل أخيها عليه السلام، وهو الأمين على الرِّسالة من بعده...

صوت الثورة الحسينيّة

هنا، أيّها الأخوة والأخوات، اسمحوا لي بأن أتوقّف عند نقطةٍ حول مشهد السَّبي، حيث لا يمكن للمرء إلا أن يغضب بكلِّ كيانه لكلِّ هذا الظّلم المركّب؛ ظلم يزيد وظلم سكوت ضمائر الأمَّة، وظلم من لم يؤرّخ جيّداً، وظلم من أرَّخ ووجد الأعذار والمبرّرات. كانت زينب عقيلة بني هاشم عليها السلام، ابنة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، حفيدة رسول الله، ابنة بضعته فاطمة الزّهراء عليها السلام، ومعها ابن أخيها زين العابدين عليه السلام، وخيرة نساء الآل والأصحاب وأطفالهم، كانت تسير في موكب السَّبي مكبّلةً بالأصفاد بعد قتل أخيها عليه السلام الَّذي شهد المسلمون جميعاً، وذكر المؤرّخون في كتبهم وصحاحهم، أنَّ جدَّها رسول الله صلى الله عليه وآله قال فيه: «**حسين منّي وأنا من حسين**» وقال عنه وعن أخيه الحسن عليهما السلام: «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**»، إنَّها بالفعل لمرارة على كلّ المسلمين بدون استثناء..

نعود إلى موكب السَّبي الَّذي يشقّ الطّرقات من كربلاء إلى الكوفة، حيث كان خطابها في سوق الكوفة مؤثّراً؛ كانت تنطق بعنفوان أمّها الزّهراء عليها السلام، وببلاغة أبيها عليّ عليه السلام، وقد هزَّت مشاعرهم وأحاسيسهم، وأيقظت عقولهم وأشعرتهم بالنَّدم، وهم من أرسلوا آلاف الرَّسائل: «أن أقبل علينا إنَّ لك في الكوفة جنوداً مجنَّدة».

كانت السيِّدة زينب عليها السلام إعلاميَّة رائعة وعملاقة، وهي تقدّم مظلوميَّة الحسين وأهل بيته عليهم السلام، وتقول لأهل الكوفة ما يجب أن يسمعوه عن حقيقتهم وخذلانهم للحقّ، وما سيترتَّب على ذلك في الدّنيا والآخرة..

وفي ذلك، قال خزيم بن بشير الأسدي، وهو من أهل الكوفة: «فوالله، لقد

رأيت النّاس يومئذٍ حيارى وهم يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، وقد رأيت شيخاً كبيراً واقفاً إلى جنبي يبكي حتّى اخضلّت لحيته، وهو يقول: بأبي أنت وأمّي، كهولكم خير الكهول، ونسلكم خير نسل».

التحدّي الرّساليّ

وفي قصر ابن زياد، دخلت زينب عليها السلام مرفوعة الرّأس، لم تسلّم، لم تكترث لوجوده، سأل أوّلاً وثانياً وثالثاً، وحين قال: «الحمد لله الّذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم»، قرّعته ووبّخته وقالت له بكلّ عنفوان: «**الحمد لله الّذي أكرمنا بنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وطهّرنا من الرّجس تطهيراً، إنّما يُفتضَح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا**»[1] (أي أنت..).

كان موقف زينب عليها السلام مليئاً بالشّجاعة والجرأة والإيمان العمليّ، وكان تطبيقاً لمبدأ ثورة الحسين عليه السلام وهدفه؛ وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والّذي مارسته في قصر يزيد، عندما حوّلته إلى أسلوب عمل.

وبعد ذلك في الطّريق إلى دمشق، وفي كلّ محطّةٍ كان يتوقّف فيها الرّكب ـ وكثيرة هي المحطّات لطول الطّريق ـ كانت زينب لا تفتأ تصحّح أكاذيب السّلطة، فيزيد قد عتّم على النّاس، وضخّ لهم إعلاماً موجّهاً فيه كلّ المكر، وهم في غفلتهم صدّقوا أنّ هؤلاء الّذين يكبّلهم جلاوزة يزيد هم من الخوارج، وهي أمام يزيد لم تهادن، تماسكت وعضّت على الجرح وصبرت، وفي صبرها قال الشّاعر:

بأبي الّتي ورثت مصائب أمّها وغـدت تقابلها بصبر أبيها

وفي قصر يزيد، والرّأس الشّريف في طشت أمامه، لم تنهر، استحضرت كلّ الشّجاعة، وفجّرت غضبها في خطبةٍ سيظلّ التّاريخ يذكرها عنواناً للشّموخ

(١) تاريخ الطبري، ج٦ ص٢٦٣.

والعزّة والإباء ـ ونحن ننصح كلّ الأجيال بالاطّلاع عليها، وأن تصبح جزءاً من برنامج التَّربية والتَّدريس ـ وقفت لتقول ليزيد الَّذي كان في قمّة نشوته: «**فكِدْ كَيْدكَ، واسْعَ سَعْيَكَ، وناصِبْ جُهْدَكَ، فوالله لا تَمحُو ذِكرَنا، ولا تُميتُ وَحيَنا، ولا تُدرِكُ أمَدَنا.. وهل رَأيُكَ إلاّ فَنَد ـ خَرَف ـ وأيّامُكَ إلاّ عَدَد، وجَمْعُكَ إلاّ بَدَد، يومَ يُنادي المنادي أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**».

تأليب الرّأي العام على يزيد

لقد نقلت السيِّدة زينب عليها السلام معركة كربلاء إلى عقر دار يزيد، وهي الَّتي أيقظت عقل زوجة يزيد، وجعلتها تثور على زوجها لصالح الحسين عليه السلام وعياله، كما فعل ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام في خطبته أيضاً، وبدأت مفاعيل حركة زينب عليها السلام، فكم من عيون بكت، وكم من غشاوات أُزيلت عن أعين النَّاس، فعرفت حقيقة يزيد، كلّ هذا جعل يزيد يسعى إلى أن يتنصَّل من فعلته، ويلقي بالمسؤوليَّة على عاتق ابن زياد، ويطلب إرجاع السَّبايا إلى المدينة معزَّزين؛ وهو لم يتحوَّل ولم يتُب، ولكن ما حدث أنَّ الرّأي العام تحوَّل ضدَّه، وكانت زينب هي مَنْ فعلت ذلك، ودقَّت أوّل مسمار في نعش مملكة بني سفيان، الَّتي لم تعمّر بعد ذلك طويلاً.

وفي المدينة أيضاً، لم يتوقّف صوت زينب عليها السلام، حتَّى اضطّر والي المدينة إلى أن يقول ليزيد، إن كان لك شغل في المدينة، فلا تُبْقِ فيها هذا الصَّوت.. وبعد ذلك، يتشتَّت التّاريخ في مصادره، محاولاً التَّعتيم على حركة زينب، الّتي لم تهدأ، ولم تكلَّ أو تملَّ، ولم تُبْقِ الدَّم الحسيني حبيس أرض الطفّ، وبعد كلّ هذا الجهد والعناء وتحمّل المسؤوليّة، التحقت زينب عليها السلام بأخيها الحسين، ولكن بعد أن سلّمت شعلة هذه النَّهضة إلى الإمام السَّجاد عليه السلام، لمتابعة دوره الرّساليّ.

مسؤوليَّة الحفاظ على الثَّورة

أيُّها الأحبَّة: ومنذ ذلك الوقت، لم تتوقَّف الجهود؛ جهود العلماء والمفكّرين والأدباء والشّعراء، للعمل من أجل تعريف النَّاس بحقيقة ما جرى على أرض كربلاء، في تفاعلٍ وجدانيّ ورساليّ وفكريّ قلَّ نظيره في ثوراتٍ أخرى في تاريخ الانسانيَّة..

أيُّها الأحبَّة، إنَّ مسؤوليَّتنا كبيرة في أن نجعل عاشوراء حاضرةً في كلِّ عقلٍ وقلبٍ ووجدان، وأن ننقلها إلى كلِّ السَّاحات. فكلُّنا إعلاميّون في ساحة عاشوراء، وعلينا تقع مهمَّة ليست بالسَّهلة، للحفاظ على هذه الثَّورة حيَّةً ونقيَّةً ومخترِقةً لحواجز الزَّمان والمكان، وعلى عاتق العاملين والرِّساليّين، يقع إنتاج إعلامٍ ناجحٍ عن كربلاء، وذلك بالتزام عدَّة نقاط نوردها بإيجاز:

ـ التَّأكيد أنَّ هدف إحياء ذكرى عاشوراء هو التّقرّب إلى الله أوّلاً؛ ويبقى هاجسنا هو التزوّد من هذا المعين الرّوحيّ والإيمانيّ والتَّربويّ والحركيّ والرِّساليّ لهذه الثَّورة.

ـ عدم الانشغال بالتَّعبير العاطفيّ ونسيان العقل أو العكس، فهذا المزج بين العقل والعاطفة ضروريّ، لأنَّ طينة الإنسان من عقلٍ وعاطفة، وعلينا أن نعقلن العاطفة، وأن نلوِّن العقل بها.

ـ يجب اعتماد التَّوثيق والبراهين والأدلَّة لإعادة شرح وتحليل ما حصل في تلك الحقبة، من طبيعة الانحراف الَّذي أدّى إلى أن يصل إلى الخلافة الإسلاميَّة رجل فاسق كيزيد، وكذلك تحليل موقف الحسين عليه السلام بالعمق.

ـ العمل على تقديم هذا المضمون اليوم بعيداً عن الحساسيّات المذهبيَّة الَّتي لا تخدم رسالتنا في إحياء عاشوراء، ولتتصرَّف على أساس أنَّ الحسين هو للمسلمين جميعاً..

ـ على قرّاء مجالس العزاء أن يتحمّلوا مسؤوليّة تقديم السّيرة كما حصلت، دون أيّ زيادة أو نقصان، ودون أن نُسيء إليها بأيّ زيادة..

ـ على القيّمين المقيمين للمجالس في البيوت أو الحسينيّات، أن لا يكون المعيار المعتمد عندهم هو الصّوت الجميل، بل أن يكون المعيار الأساس هو الثّقافة والوعي واحترام المنطق، وعدم اللّجوء إلى ابتكار طقوس هي أقرب إلى الاستعراض منها إلى التّعبير العفويّ العاطفيّ..

الابتعاد عن الممارسات المستهجنة

هذا على الصّعيد المباشر، أمّا على صعيد المحبّين والمتعاطفين الّذين يحضرون هذه المجالس، فالمسؤوليّة تقع على عاتقهم في القيام بالإعلام الجيّد عن عاشوراء، وينطبق هنا أيضاً حديث: «**كونوا دعاةً لنا بغير ألسنتكم**»[1]. فمثلاً، مَنْ يتّشح بالسّواد في عاشوراء، يُحسب عليه الخطأ مضاعفاً، فالحداد على الحسين مسؤوليّة، ومن غير المقبول أن يزعج أحد النّاس ولو بصوت المجلس، ومن غير المقبول أن يكون فجّاً أو غليظاً أو ممن لا يصلّون، بل من المتوقّع منه أن يكون أوّل المصلّين، وأوّل الخادمين للنّاس، وأن يكون واسع الصّدر، لا ينطق إلا بالطيّب، ولا يذكره النّاس إلا بالخير، فيكون بذلك خير من يحيي عاشوراء.

ثمّ إنّ الأساليب والسّلوكيّات المستهجنة، مثل مظاهر ضرب الرّؤوس بالسّيوف، وجلد الظّهور بالسّلاسل، والسّير على الجمر، لا تعبّر عن حقيقة التّفاعل مع الحسين ولا المواساة له، هذا إلى جانب كونها تشوّه صورة هذه الثّورة، وصورة الّذين يتفاعلون معها، وتبثّ إعلاماً مغلوطاً عن قضيّة الحسين عليه السلام، وتحرف وجهة الاستفادة الفعليّة من موسم عاشوراء.

إنّ المطلوب إظهار الجانب المشرق من الملحمة الحسينيّة، من دون تشويه

(١) حاشية مجمع الفائدة والبرهان، الوحيد البهبهاني، ص ٢٤.

حقيقتها بممارساتٍ تسيء إليها، ونقف عاجزين أمامها، لا يمكننا تبريرها والإقناع بها، عدا عن إجماع أغلب الفقهاء والمراجع على تحريمها من باب أوّليّ أو ثانوي..

لقد استطاعت السيّدة زينب عليها السلام أن توصل ثورة الحسين عليه السلام إلى ما وصلت إليه، عندما وعت الحسين عليه السلام في منطلقاته وأهدافه، وعندما أحسنت الأسلوب الَّذي حرَّك المشاعر والعقول، وعندما توسَّلت ببلاغتها وحكمتها، فكانت بحقّ شريكةً للحسين عليه السلام في صنع ملحمة انتصار الدَّم على السَّيف.

إنَّ إحياء كربلاء رسالة إعلاميَّة، فهلاَّ تَعَلَّمنا من زينب عليها السلام كيف نؤدِّيها خالصةً لوجه الله.

* * *

عندما نتحدّث عن عاشوراء، فإنّنا نتحدّث عن مواقف وعن أحداث ومجريات ونتحدّث عن أدوار وبطولات..

تكامل الأدوار

والغوص في دراسة الأدوار، من شأنه أن يُعطي القيمة الحقيقية لما جرى في عاشوراء، فعاشوراء هي ليست فقط مجريات معركة حصلت في ساعات، وإن كانت هي كذلك في الواقع، ولكنْ في خلف هذه الساعات تجسّدت بطولات ومواقف وتوزّعت أدواراً على الجميع دون استثناء...

ولم يعد خافياً أنّ من ضمن ما يميّز عاشوراء، هو أنّها لم تكن معركة كلاسيكيّة، جيش مقابل جيش، إنّما كانت مجموعة إرادات وعزائم وكتلة متراصّة، ابتداء من الطفل الصغير حتى الشيخ الكبير، من العبد المملوك إلى الحُرّ... مجموعة توافرت فيها عدة مستويات: الإيماني (ولاء أهل البيت) والاجتماعي (الأعمار المختلفة) والمعيشي (الغني والفقير) والقبلي (تنوّع القبائل) والمناطقي (المدينة، الكوفة). كانت فعلاً ثلّة لا تخضع إلى أيّ اعتبارات سوى إيمانها بالقضية الكبرى. لأنّه ما إن أعلن الحسين عليه السلام عن رفضه للخضوع والدخول في المعركة حتى أعلن الجميع الولاء: «لن نخلي عنك... وبما نعذر إلى الله...».

نموذجٌ مشرق للمرأة

ثم، إن ما أعطى عاشوراء هذا الزَّخم العاطفيّ القويّ المستمرّ هو وجود عنصر النساء بقوّة في نسيجها، تَمثّل بزينب عليها السلام أختِ الإمام وبنت فاطمة عليها السلام وعليّ عليه السلام وجدّها رسول الله صلى الله عليه وآله، ووجود زينب بكلّ هذا الإرث، مثّل مدرسة في كيفية تعامل المرأة المسلمة مع القضايا الكبرى...

أيّها الأحبّة...

لقد أظهرت عاشوراء، مشهد المرأة كشريك أساس في صنع هذه الملحمة وفي الحفاظ على إنجازاتها... لقد شكّل هذا الحضور ردّاً عملياً على كلّ الذّين يقولون: إنّ الإسلام حجّم دور المرأة، وحَجَبَها وأبعدها عن حركة الحياة الفاعلة. أو أنّها على هامش الرجل لا سيّما في القضايا العامّة والكبيرة.

حضور المرأة في عاشوراء لم يكن طارئاً بل كان قراراً من الحسين عليه السلام، وكان هذا أيضاً اختياراً ورغبةً منها، كان اختياراً من زينب وكلّ النّساء، بحيث قَدِمْنَ إلى كربلاء انطلاقاً من حِسّهن الإسلامي، ومن شعور بالمسؤوليّة. كُنَّ يشعرن بالشعور بالمسؤولية نفسه التي كان يشعر به الحسين وأيّ من أصحابه في كربلاء. ومن هنا، نجد المرأة تندفع إلى المعركة، وتدفع غيرها، وكانت تؤثّر وتتأثر بها.

لم تكن زينب عليها السلام المرأة الوحيدة في قافلة الحسين عليه السلام، كان فيها الزوجات اللّواتي حرّضن الأزواج على الاستشهاد بين يدي الإمام عليه السلام، والزوجة التي فضّلت مرافقة الزوج على البقاء في بيتها، وفيها الأمّ التي تدفع بابنها إلى ساحة المعركة بعد استشهاد الزوج.

كانت كربلاء نموذجاً مشرقاً للمرأة التي تكسر قيد استضعافها كي تقوم بأداء أمانتها، وتحمّل مسؤوليّتها في الدّفاع عن أمانة حَمَلها الحسين عليه السلام، ودعا الأمّة إلى تأديتها.

زينب عليها السلام تحوّل الهزيمة إلى نصر

وقمة التضحيّات والثبات والموقف تمثّلت في الحوراء زينب عليها السلام، فهي بحقّ شريكة الحسين عليه السلام، فقد عاشت معه كلّ التفاصيل، كان يحدّثها وتحدّثه، ويناجيها وتناجيه ويبثّها شكواه، ويضعها في صورة ما سيحدث، كان يرى فيها الأخت الرساليّة الواعية الحكيمة.

وعلى مشارف المعركة كان واضحاً معها في الموقف الذي ينبغي أن تقوم به، قال لها: «**يا أختاه إنّي أقسمت عليك فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عَليَّ وجهاً، ولا تَدْعي عَليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت**».

لقد رسم الإمام الحسين عليه السلام الصورة التي سنرى زينب عليها السلام عليها وضمّدت زينب عاطفتها، رغم أنّها كانت تعيش عمق المأساة مع أخيها وإمامها الحسين عليه السلام.

وبعد المعركة واستشهاد الحسين عليه السلام وأولاده معهم بدت زينب عليها السلام جبلًا من الصبر لا يتزعزع، أجّلت حزنها ودموعها لتستطيع أن تؤدّي مسؤوليّتها، لذا مشت بكلّ شموخ بين صفوف الأعداء إلى مصرع أخيها وحولها الأجساد الطاهرة. وضعت كفيّها تحت جسده الشريف، وقالت: « **اللهم تقبّل منّا هذا القربان**».

بهذه الكلمات أرادت السيدة زينب عليها السلام أن تزيل نشوة النصر لدى الأعداء، أن تقول لهم: لقد قتلتم الأجساد، وذبحتم الأطفال، ولكنّكم لم تقتلوا العزيمة والإرادة والموقف.

لم ترضَ أن تبدوَ أمامهم ضعيفة، ولم تستجدِ منهم العاطفة، بل ردّت جريمتهم إلى نحرهم. ورسمت بهذا الشموخ معالم النّصر، النصر للروح وللشعارات

وللقضيّة مع كلماتها على جسد أخيها، ومنذ تلك اللحظة، حملت زينب عليها السلام لواء القضيّة وحوّلت الهزيمة العسكريّة إلى نصر بعد أن اختزنت في قلبها كلّ أحزان كربلاء وحالها حال أمّها الزهراء عليها السلام..

طوال رحلة السبي وصولاً إلى مجلس يزيد، لم تستعطف زينب عليها السلام أحداً، منطقها لم يكن ضعيفاً، بيّنت الحقائق، أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وقالت بعد ذلك ليزيد ـ المنتشي بنصره ـ الحقيقةَ التي عليه أن يسمعها: «**كِدْ كيدك واسْعَ سعيك وناصِبْ جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا**».

ومن مجلس يزيد انقلبت الصورة.. في مجلسه زينب المسبيّة تحاجج، تقرّع، تُذِلّ، تُصغِّر، بدت هي التي تحرّرت من قيودها وصفّدت بها يزيد.. وأثمرت جهود زينب عليها السلام ومعها الإمام زين العابدين عليه السلام، وكانت أول بشائر الثورة تنطلق من الكوفة، وكانت ثورة التوابين أوّلَ الغيث.

درس الماضي وتحدّي الحاضر

كان البكاء في تلك المرحلة.. مؤجّلاً، ولكنّنا اليوم نحن نبكي زينب عليها السلام، نبكي سبيها، نبكي الحزن المدفون في داخلها.. والحمل الثقيل من المسؤولية التي تصدّت لها... وفي ذاكرتنا ووجداننا ما كانت أمّها الزهراء عليها السلام قد قالت:

صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنّها صُبَّتْ على الأيّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا[1]

أيها الأحبة هذا غيض من فيض زينب عليها السلام ونساء عاشوراء .....

وبما أنّنا ندعو إلى أن يكون حزننا رساليّاً، فإنّنا دوماً نبحث عن مدى استفادتنا وتفاعلنا ووفق ما بتنا نعيشه في كلّ موسم من عاشوراء، (وهذا يشعرنا بأهمية هذه الإحياءات وبذل كّل الجهود لأجلها..)

(١) عوالم فاطمة الزهراء عليها السلام ص ٤٠٤.

فكلّما حضرنا مجلساً علينا أن نخرج لنقول: الوقت وقت عمل... الوقت وقت إصلاح وتغيير، ووقت بناء واستقامة..

فلندخل، في ورشة عاشوراء من بوابة التحدّيات المحدِّقة بنا والتي تحتاج إلى تغيير وإصلاح، وإلى تقويم واستقامة، وتحتاج إلى إعادة تعريف وتصويب، وما أكثر الأمور التي نحتاج فيها إلى إعادة نظر ونقد وتوجيه نحو البوصلة الحقيقية...

ودور المرأة جزء من التحدّيات التي طالما واجهتنا والمطروحة بقوة في واقعنا والمطلوب أن لا نديرَ لها ظهرنا حتى لا تتفاقم وتتعقّد وتحرفنا من حيث لا ندري... من هنا سأعرض عدّة نقاط نستلهمها من مخرجات عاشوراء.

١ـ نحو دور فاعل للمرأة

يجب التأكيد على المستوى الإسلامي العام على شراكة المرأة والرجل، وتهميش المرأة لم يكن مطروحاً أبداً لا بالنصوص ولا بالواقع (الرسول وخديجة، علي وفاطمة، الحسين وزينب عليهم السلام). والتهميش حصل متأخّراً بعد التراجع وعصور الانحطاط وابتعاد النّاس عن جوهر الرسالة والدّين ودخول الأفكار الوافدة...

من هنا، من منبر عاشوراء، نتوجّه إلى المرأة، نخاطبها مباشرة ومن دون وساطة الرجل ليتصدّق عليها بدورها... ندعو المرأة إلى أن تؤمن بقدراتها، وبدورها، وبفاعليّتها، مطلوب أن لا تُحيّد نفسها كما لم يُحيّدها الإسلام، وعليها دوماً أن تختبر في أيِّ موقع هي، وما هي إنجازاتها، وأين تذهب طاقاتها التي وهبها الله إيّاها، من مال ووقت وعلم وموقع وغير ذلك... وما التأثير الذي تركته حولها وأين بصمتها؟...

إنّ قناعة المرأة بدورها أساس، ولكن لا بدّ من اتفاق وتكاتف بين كلّ شرائح المجتمع حول تسهيل اضطلاع المرأة بدورها في المسؤوليات العليا وليس في الاستهلاك فقط، لأنّ واقعنا يشير إلى غير ذلك... (وهنا أتساءل على الهامش كم عدد النساء في المجالس البلديّة وفي مواقع القرار وفي المواقع السياسيّة التي للإسلاميين الدور الأكبر في إدارتها؟ سؤال يحتاج للتدقيق ويحتاج إلى أرقام نبني عليها حركة تنميتنا الداخلية..)

٢ـ لتكن المرأة نفسها

على المرأة أن تحكّم عقلها في كلّ ما تسمعه وتقرأه، ولا تكون ببغاء يردّد، بل تحلّل وتسأل وتناقش، هي مسؤولة ولا يمكن لها أن تتخلّى عن مهمّة التفكير وتتّكل على الآخرين أن يفكّروا عنها... وهي مسؤولة أمام الله عن طاقاتها وعن مواقفها وفاعليّتها... وعليها أن تسحب نفسها بعيداً عن السطحيّة والاهتمامات الدخيلة وغير المتوازنة التي تشغل بالها ويُراد لها أن تنغمس بها.

٣ـ عاطفتها نقطة قوّة لا ضعف

نظرتنا إلى عاطفة المرأة، لا نراها نقطة ضعف، بل نقطة قوة، وهي تكمّل الرجل من خلالها وهي ضرورية في عالمنا الذي باتت تسيطر عليه المادة.

فنحن نحتاج في عملنا الرسالي إلى مَنْ يتحسّس آلام الفقراء والمساكين والمظلومين، وهم كُثُر من حولنا، هم يحتاجون إلى احتضان عمليّ للهموم وهنا يأتي دور المرأة... قلبها الوادع وعاطفتها الحانية، في عاشوراء تحوّلت السيدة زينب عليها السلام إلى خيمة من الحنان والعاطفة والمواساة مع مَنْ تبقى بعد فاجعة عاشوراء وعاطفتها كانت بلسماً لجراحاتهم الكثيرة...

٤ـ منها نتعلّم الصبر

تتصل عاشوراء بعنوان أخلاقي أساسي وهو الصبر الذي نحتاجه كثيراً في ظروفنا الراهنة، فقد نجد من خلال متابعاتنا الكثير من المشاكل التي تَرِدنا، أنّ سببها الأساس هو افتقاد الصبر، فالمقدرة على الصبر في مجتمعنا تتراجع بشكلٍ كبير، لا نريد أن ندخل في الأسباب، والتي قد تتصل بطبيعة العصر وما يفرزه من مشاكل على مستوى الوضع النفسي وغيره...

ولكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أنّ عاشوراء فرصة كبيرة لنا لنتغلّب فيها على قلّة الصبر، بل لنرفع منسوبه لدينا بمجرّد تذكّرنا لصبر الحسين وزينب والعباس وعليّ الأكبر عليهم السلام وكلّ أبطال كربلاء.

كم نحن نحتاج اليوم إلى الصبر على تحدّيات الحياة والخروج منها ثابتين غير متراجعين أو متنازلين... والمرأة معنية بذلك كما الرجل، تحتاج لصبر على اضطرارها للعمل في البيت وخارجه، تحتاج إلى الصّبر على تربية الأولاد، وعدم الاستسلام من كثرة المشاكل، الصّبر على ظروف الزوج، والأهل والصّبر على تحقيق الأحلام والأهداف والطموحات، وعدم الانهزام والانكفاء والاكتفاء بتسيير الأمور وتمضية الزمن. إنّنا عالم نحتاج فيه أكثر من أيٍّ وقت إلى عناد وتحدّ وإيمان وقناعة راسخة بأنّ النتائج ستُثمر ولو بعد حين...

حبُّ زينب عليها السلام ومواقف الحق

أيّها الأخوة والأخوات، أن نحمل اليوم مشعل زينب يعني أن ننقل هذه المدرسة بكلِّ دروسها وعِبَرها وعمقها إلى بيوتنا ومدارسنا، مؤسّساتنا، نوادينا، أسرنا، وعلاقاتنا أن نترجم دموعنا ونداءاتنا إلى مواقف لمواجهة أيّ انحراف أو فساد. ليكن مَن يحمل مشعل زينب بوصلته هي الحقّ ولا شيء غيره، فتقديس الحقّ لا يعرف المساومة، ولا الخداع، ولا يعرف الانكفاء

والتأجيل، وكفى أن نصوّر زينب إنسانة مسحوقة مظلومة، لا عمل لها سوى النواح والبكاء.

صحيح أنّ **«لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»**، لكن من واجبنا أن لا نأتي على هذه النّار فنطفئها بإحياءٍ شكليّ روتيني لا يملك تغيير الواقع، فالحزن الزينبي حزن ولّاد وقّاد، وعلينا أن نكتشف كيف يفجّر الإرادات، ويجعلها أصلب من الصخر، فَدَم الحسين وصبر زينب نورانية تتجدّد وثروة لا تنفد، وطوبى للأمّة التي تحافظ على ثرواتها وطاقاتها من أجل حياة عزيزة كريمة.

* * *

سرُّ عاشوراء

هي عاشوراء تمرّ علينا موسماً بعد موسم.. مدرسة ننهل من معينها، فتُجدّد الإيمان فينا وتحفّزنا على العمل، هي مدرسة يتعلّم فيها الجميع، رجالاً ونساءً، شباباً وشابّات، أطفالاً وشيوخاً.. يتعلّمون فيها الدّروس تلو الدّروس، وما أكثر دروس كربلاء الّتي لا تنتهي.. تبقى تواكبنا في كلّ وقت وحيثما كنّا، وتشعر بها نقيّةً صادقة، وهذا هو سرّ عاشوراء الّذي جعلها مدرسةً عابرةً للزّمن، تأتي إليك من عبق التّاريخ، لتكون خير دليل ومعين ومبيّن لتعاليم الإسلام الأصيلة، لهذا كلّما انتمينا إلى مدرسة عاشوراء، تمثّل هذا تعلّقاً بالإسلام، وحبّاً بالقرآن، والتزاماً بالطّاعات.

الهوية والأهداف

نحن لا نفهم حبّنا وتقديسنا لعاشوراء بعيداً عن تعبيرنا العمليّ، ولا نفهم هويّتنا العاشورائيّة هويّةً منفصلةً عن هويّتنا الإسلاميّة: صحيح أنّ لعاشوراء مزاجاً خاصّاً: ثياباً سوداً، ومآتم وحزناً وبكاءً، ولكن هذا كلّه ليس هو هدف الحسين، ولا هذا هو ما استُشهد لأجله، وليس بهذا فقط نواسيه، بل كلّ ما نقوم به هو وسيلة لنفهم أهداف الحسين ونعيشها، هذه الأهداف الّتي أعلنها، وعلى رأسها: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر..

وفي مقدَّم أهداف الحسين عليه السلام، عدم الرّضوخ للظّالم الّذي تمثّل آنذاك بيزيد، بكلّ فسقه وفجوره وشربه للخمر واستباحته للدّماء.. إذاً هي ثورة على كلّ ذلك، وعلينا أن نعي جيّداً دروس عاشوراء، كي لا يفوتنا أيّ منها، وحتّى لا نحرم من فيض بركاتها..

شراكة المرأة في الملحمة

ومن مشاهد عاشوراء؛ مشهد المرأة الشّريكة في صنع هذه الملحمة.

ولعلّ في دروس المرأة العاشورائيّة خير ردٍّ عمليٍّ على الّذين يقولون إنّ الإسلام حجّم دور المرأة وأبعدها عن حركة الحياة الفاعلة، أو أنّها على هامش الرّجل، وأنّ القضايا العامّة والرّساليّة ليست مطلوبة منها..

سنورد هنا بعض النّماذج التي لوّنت عاشوراء وأعطتها هذا البعد الإنساني المميَّز، وخصوصاً أنّ هذه النّماذج انطلقت من حسّها الإسلاميّ، ومن شعورها بالمسؤوليّة، ولم يفرض أحد عليها ذلك، إنّما قامت بهذا الدّور بملء إرادتها واختيارها.

لم تقف المرأة مكتوفة اليدين في كربلاء، بل اندفعت إلى ذلك ودفعت غيرها أيضاً، كانت متفاعلةً وفاعلةً، كانت متأثّرة ومؤثّرة، فكان لها نصيب من المعاناة والتّضحية.

في كربلاء نجد الأمّ، الزّوجة، والأخت، جميعهن كنّ قبل كربلاء نساءً عاديّات يمارسن حياةً عاديّةً شأنهنّ شأن كلّ امرأة، ولكنّهن وفي كربلاء ارتقين وسمون وضحّين بأعزّ ما عندهنّ؛ ضحّين بالولد، بالزّوج، وحتّى بأنفسهنّ، من أجل نصرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

ومن الأمثلة على ذلك: زوجة عبدالله بن عمير، تقف إلى جانبه وتقول:

«فداك أبي وأمّي، قاتل دون الطيّبين من ذريّة محمّد». وبعد استشهاده، تخرج إلى مصرعه حاملةً عمود خيمة لتكمل المواجهة، فيصرعها أحد جنود عمر بن سعد بسهم، وتكون أوّل امرأة تستشهد في أرض المعركة.

لم تقف المرأة مكتوفة اليدين في كربلاء، بل اندفعت إلى ذلك ودفعت غيرها أيضاً، كانت متفاعلةً وفاعلةً، كانت متأثّرة ومؤثّرة، فكان لها نصيب من المعاناة والتّضحية...

ومن هؤلاء النّساء أيضاً من تدفع بابنها إلى المعركة، وهي أمّ وهب بن حباب الكلابي، وتأبى عليه إلا أن يدافع عن الحسين عليه السلام حتّى الاستشهاد، وكان الشابّ حديث عهد بالزّواج.. وكذلك فعلت زوجة جنادة بن الحارث السلماني، فبعد استشهاد زوجها، نادت ابنها وفلذة كبدها عمرو: «اخرج يا بنيّ وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»، وحين يُستشهد، ويُحَزّ رأسُه، تقف عند مصرعه، تحضن رأسه وتقول: «أحسنت يا بنيّ».

زينب تحمل شعلة القضيّة

ونأتي إلى زينب، الحوراء والملهمة، العالمة والمتعلّمة.. فلزينب كلّ الحضور العاشورائيّ، فهي بحقّ شريكة الحسين عليه السلام لحظةً بلحظة؛ يحدّثها وتحدّثه، يناجيها وتناجيه، ويبثّها شكواه، وقد وَضَعها في صورة ما سيحدث، وهيّأها لتقوم بدورها: «**يا أختاه، إنّي أقسمت عليك فأبرّي قسمي؛ لا تشقّي عَليَّ جيباً، ولا تخمشي عَليَّ وجهاً، ولا تدعي عَليَّ بالويل والثّبور إذا أنا هلكت**».

وبعد المعركة، ظلّت زينب عليها السلام جبلاً من الصّبر لا يتزعزع، جمَعت بين الموقف العاطفيّ والموقف الرّساليّ، موقف القوّة والمواجهة، وقفت عند جسد أخيها وإمامها الحسين عليه السلام، وضعت كفّيها تحته وقالت: «**اللّهمّ تقبّل منّا هذا القربان**».

مع هذه الكلمات، ومنذ تلك اللحظة، حملت زينب عليها السلام لواء القضيّة، وراحت تعمل على أن تحوّل الهزيمة العسكريّة إلى نصر، بعد أن اختزنت في قلبها كلّ أحزان كربلاء، وحالها حال أمّها الزّهراء عليها السلام فيما نُقل عنها:

صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنّها صُبَّتْ على الأيّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا[1]

زينب.. أمّ المصائب هذه، كانت شريكة الحسين في النّصر، فكما انتصر الحسين في غربته ووحدته وعطشه، انتصرت هي أيضاً، رغم عدم وجود النّاصر، ورغم قلّة المعين وجسامة المسؤوليّة..

وفي رحلة السَّبي، نقلت زينب شعلة كربلاء ونارها إلى القرى، ومحطّات استراحة الموكب، وشوارع الكوفة، ودمشق، وقصور الطّغاة.. إنّه لمشهد نادر؛ الجراح والآلام، والسّلاسل والقيود، وبكاء الأطفال وهلع النّسوة، والمصير المظلم الّذي يُبيّته لهم الأعداء.. ممّن قست قلوبهم فغدت كالحجارة بل أشدّ قسوة، ويكفي أن نتخيّل موقف زينب عليها السلام بخوفها على الإمام زين العابدين عليه السلام، أمانة الحسين عليه السلام عندها، والبقيّة الباقية من نسل الأئمّة عليهم السلام، حتّى نعلم كِبَر المسؤوليّة الّتي نزلت على عاتقها.

أيّ شخصيّة هي للحوراء زينب عليها السلام جعلتها لا تنهار، بل تظلّ واعيةً لكلّ ما هو مطلوب منها، وعلى كلّ الجبهات، وهي في كلّ ذلك كانت تحرص في أدائها على أن تكون أمينةً على ما أوصاها به الحسين من دور تستكمل به ثورته..

لقد جعلت زينب عليها السلام من كلّ مكان توقّفت فيه منبراً إعلاميّاً، وكانت الصّوت المملوء جرأةً ومنطقاً وبلاغةً وعقلاً وإيماناً، دفاعاً عن قضيّتها، قضيّة الحسين عليه السلام الّتي هي قضيّة الحقّ في مواجهة الباطل.

(١) عوالم فاطمة الزهراء عليها السلام ص ٤٠٤.

ولعلَّ أبرز المواقف الرّساليّة الّتي تجسَّدت فيها شخصيَّة الحوراء زينب عليها السلام، عندما أبدت في محضر يزيد عنفواناً وصلابةً قلَّ نظيرهما، وما زلنا نستمدّ من موقفها عزيمةً وقوّة، وإنّنا نعتبر ذلك الموقف مسؤوليّة رساليّة، نحن بحاجة إلى أن ننقله إلى العالم كلّه، ليروا كيف أنَّ ابنة بنت محمّد صلى الله عليه وآله سجَّلت موقفاً تاريخيّاً كان شعلةً لم يستطع الزَّمن أن يطفئها، وما زالت إلى يومنا هنا..

لقد جعلت زينب عليها السلام من كلّ مكان توقّفت فيه منبراً إعلاميّاً، وكانت الصّوت المملوء جرأةً ومنطقاً وبلاغةً وعقلاً وإيماناً، دفاعاً عن القضيّة الحسينيّة الّتي هي قضيّة الحقّ في مواجهة الباطل..

زينب عليها السلام لم تستعطف أحداً من الظّلَمَة، بل إنَّ مواقفها اتَّسمت بالجرأة والقوَّة والثّبات، فقد بيَّنت الحقائق، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وخاطبت يزيد ومن معه بقولها المشهور: «**فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لن تمحوَ ذكرنا، ولن تميت وحينا**»...

انقلاب الصورة

في مجلس يزيد انقلبت الصّورة؛ زينب المسبيَّة تحاجج يزيد، تقرّعه تذلّه، تصغّره، ولا يملك منطقاً يردُّ به عليها، وكأنّي بها قد تحرَّرت من قيدها وصفَّدت به يزيد...

«زينب» إنَّما قدرت على ذلك برباطة جأش وعزيمة وقوَّة إرادة.. لم يكن البكاء همّ زينب في تلك المرحلة، البكاء كان مؤجّلاً لديها، فقد كان الوقت وقت العمل.. ونحن اليوم نبكي زينب، نبكي مصابها، نبكي سبيها، نبكي الحزن المدفون في داخلها، والحمل الثّقيل من المسؤوليّة الّتي تصدّت لها، ولكنّنا نقول أيضاً: الوقت وقت عمل.

إنّنا وانطلاقاً من دور زينب عليها السلام نطلّ على مسؤوليّاتنا، نحن الّذين التزمنا نهج زينب والحسين عليهما السلام، رجالاً ونساءً، ونحن في المجالس العاشورائيّة نسعى إلى أن نؤكّد عدة نقاط مكثّفة نلخّصها في خمس:

النّقطة الأولى: إنّ المرأة شريكة الرّجل في صنع الأحداث، ولا يمكن أن تحيّد نفسها عن الميدان العمليّ في الحياة، فالإسلام، كما نشهد من عاشوراء، لم يحيّدها عن القيام بأدوار رائدة ومميّزة، وحمّلها مسؤوليّة كبرى أمام الله عن كلّ طاقاتها وإمكاناتها، في الوقت والمال والعلم والجاه والموقف، وما إلى هنالك من إمكانات..

النّقطة الثّانية: إنّه لا مكان بين من يتمثّلن بزينب عليها السلام، للضّعف ولا للانسحاب والهزيمة، مهما عظمت التحدّيات، فعاشوراء تعلّمنا أنّه كلّما اشتدّت التحدّيات، ازداد الإيمان واليقين بالله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]...

النّقطة الثّالثة: نظرتنا إلى عاطفة المرأة، إنّنا لا نرى عاطفة المرأة نقطة ضعف، بل نقطة قوّة، فهي ضروريّة، ولا سيّما في مجتمعنا الّذي باتت تسيطر عليه المادّة، فنحن نحتاج في عملنا الرّساليّ إلى من يتحسّس آلام الفقراء والمساكين والمظلومين، وهم كثر من حولنا، ممّن يحتاجون إلى احتضانٍ عمليّ للهموم، وهنا يأتي دور المرأة، قلب الحياة وعاطفتها الحانية. ثم إنّ كون المرأة ذات قلب رقيق، لا ينبغي أن يكون أبداً مجالاً للتّقليل من دورها، شرط أن لا تستغرق هي في عاطفتها وتذوب فيها.

والنّقطة الرّابعة: على المرأة أن تحكّم عقلها في كلّ ما تسمعه وتقرأه، وألا تكون «إمّعة» تردّد ما يقوله الآخرون، بل أن تحلّل وتسأل وتناقش، فلها الحقّ في أن تعرف وأن تخوض في الشّأن الخاصّ والشّأن العام، أن تشارك فيما يجري من حولها في الواقع الدّاخليّ والمحلّيّ والواقع الأشمل، الإقليميّ الدّوليّ، وأن تعرف كيف تُدار الأمور وكيف تتّخذ المواقف...

نعم لها الحقّ.. أليس من مسؤوليّاتها العامّة أن تعطي صوتاً في الانتخابات؟! إذاً هي مسؤولة عن متابعة أثر هذا الصّوت على أداء هذا السياسيّ أو ذاك، وخصوصاً في ما يتعلّق بمحاربة الفساد وخدمة النّاس.. هي مسؤولة، ولا يمكن لها أن تتخلّى عن مهمّة التّفكير، وأن تتّكل على الآخرين ليفكّروا عنها..

النّقطة الخامسة: وهي تلحّ علينا بشدّة في ذكرى عاشوراء، والموضوع هو قيميّ أخلاقيّ عنوانه الصّبر، فلقد بتنا نشهد من متابعاتنا لكثيرٍ من المشاكل الاجتماعيّة، أنّ القدرة على الصّبر عند الناس بدأت تتراجع بشكلٍ كبير..

لا نريد أن ندخل في الأسباب ومهما كانت، وهل أنّ ذلك يعود إلى وتيرة العصر أو كثرة المشاكل والوضع النّفسيّ وغير ذلك من الأسباب، ولكن ما أريد أن أؤكّده هو أمر يعنينا جميعاً، وهو أن تكون عاشوراء محطّةً نتعلّم منها الصّبر، ونتزوّد من معينها بالعزيمة والقوّة والإصرار والصّبر؛ الصّبر على كلّ شيء، الصّبر على الأولاد وصعوبة تربيتهم، الصّبر على الزّوج إن قام بأذى غير مقصود، الصّبر على الأهل والأصحاب، الصّبر على التعلّم وعلى العمل، الصّبر على الابتلاءات، والصّبر على ظروف الحياة كلّها..

الصّبر هو أهمّ الدّروس الأخلاقيّة الّتي نتعلّمها من السيّدة زينب عليها السلام، الصّبر الواعي والمثمر، والصّبر لا يعني التّنازل عن الحقّ أو مراعاة الباطل، بل يعني العضّ على الألم مع السّعي للعلاج...

زيارة الحسين عليه السلام
تجديد عهد والتزام بأهداف ثورته

لقد باتت ذكرى أربعين الإمام الحسين عليه السلام في وجدان محبّي أهل البيت عليهم السلام مناسبةً تهفو فيها نفوسُهم إلى كربلاء، ليكونوا قريبين من ضريح سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، ومَنْ لم يستطع التوجّه إلى كربلاء بجسده، فليحرِص على أن يكون فيها بعقله وروحه ومشاعره، وأن يرسل تحيّاته إلى الإمام الحسين عليه السلام، كما في كلِّ زيارة: «**السّلام عليك يا أبا عبد الله، السّلام عليك يا بن رسول الله، السّلام عليك يا بن أمير المؤمنين، السّلام عليك يا بن فاطمة الزّهراء سيّدة نساء العالمين، السّلام عليك وعلى سائر المُستشهدين معك، يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيماً**».

الحثّ على زيارة الحسين عليه السلام

تنقل لنا السّيرة، أنَّ أحد أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام، وهو معاوية بن وهب، قال: «استأذنت على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، فقيل لي: ادخل، فدخلت، فوجدته في مصلاّه في بيته، فجلست حتّى قضى صلاته، وسمعته وهو يناجي ربَّه بعد الصَّلاة فيقول: «**اللّهُمَّ اغْفِرْ لي ولإخْواني وَزُوّارِ قَبر أبي الحسين، الَّذين أنْفَقُوا أمْوالَهُمْ وَأشخَصُوا أبْدانَهم رَغْبَةً في بِرّنا، وَرَجاءً لِما عِنْدَكَ في صِلَتِنا، وسُروراً أدْخَلُوهُ عَلى نَبِيّكَ، وَإجابَةً مِنهُمْ لأمْرِنا، اللّهمَّ إنّي اسْتَودِعُكَ تلْكَ الأبْدانَ وَتِلكَ الأنفُس، حتّى تَرْويهِمْ عَلى الحَوضِ يَومَ العَطَشِ الأكبر**»[1].

(١) كامل الزيارات ص ٢٢٨.

هكذا، أيّها الأحبّة، ربّى الأئمّة عليهم السلام أصحابهم وشيعتهم. ولهذا فإنَّ رحلة الزّائرين إلى المقام الشّريف، لم تتوقّف منذ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، رغم كلِّ الظّروف الصّعبة، حيث كانت مواكب المشتاقين ترحل إليه في الحرّ والبرد، وفي الأمن والخوف. من هنا، وردت الأحاديث الكثيرة عنهم عليهم السلام تحثّ على زيارة الإمام الحسين عليه السلام في جميع الأوقات، ولا تكاد تخلو مناسبة من المناسبات، إلا ونجد من الأعمال الواردة فيها زيارة الإمام الحسين عليه السلام.

فعندما نستطلع أعمال ليلة القدر والعيدين ويوم عرفة والنّصف من شعبان وغيرها، نجد زيارة الحسين عليه السلام ضمن أعمالها، وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام لأصحابه: «**مُروا شيعتنا بزيارة قبر الإمام الحسين، فإنّ إتيانه مفترض على كلِّ مؤمن**»(١).

وفي حديثٍ آخر عنه: «**لا تَدَعْ زيارة الحسين عليه السلام، أمَا تحبُّ أن تكون فيمن تدعو له الملائكة**»(٢). فعن الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَنْ أتى الحسين عارفاً به، كُتِب في أعلى علّيين**»(٣)..

وقد دأب المحبّون للحسين عليه السلام على زيارة ضريحه وأضرحة شهداء كربلاء، ولا سيَّما في محرّم، ويتكرَّر المشهد في الأربعين..

نحن هنا لن نخوض في التّفسيرات والآراء عن مدى دقّة الأحاديث حول الأربعين، وما هو ثابت منها، وما سنده أو مضمونه ضعيف، فلهذا مجالهُ الخاصّ، ولكن ما لا يمكننا الشّكّ فيه، أنّ هذه الزّيارة صارت جزءاً من وجداننا ومن وجدان محبّي الحسين عليه السلام وسلوكهم، والّتي نضعها في خانة المسار العام لدعوة أهل البيت عليهم السلام إلى زيارة شهداء كربلاء.

(١) وسائل الشيعة ج١٤ ص٤١٣.
(٢) بشارة الزائرين ص٩.
(٣) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٣٤٧.

وعي أهداف الزّيارة

إنَّ الهدف الَّذي سعى إليه الأئمّة عليهم السلام من الدّعوة إلى هذه الزيارة، ليس شكليَّة الزيارة وطقوسها، كرحلةٍ إلى المقام وقراءة الزّيارة من كتاب، وتطبيق برنامج معيّن، ثم تنتهي القضيَّة، ويعود الزّائر وكأنَّه أبرأ ذمَّته بأن أدّى الزّيارة، وقام بواجبه تجاه الحسين عليه السلام...

هذا الشّعور جيّد، ولكنَّه غير كافٍ، وخصوصاً أنَّنا بتنا نشهد الإقبال على الزّيارة، ليس كما اعتدنا من كبار السنّ فقط، بل من الشباب أيضاً، وبحشودٍ مليونيَّة، وهذا يفرض أن نستثمر هذه السلوكيّات والجهود الكبيرة الَّتي تُبذَل، ليتعمّق فهمنا لزيارة الحسين عليه السلام وكلّ الزّيارات، إلى ضرورة وعي معانيها وحقيقة أهدافها، الّتي نلخّصها بعدَّة نقاط، بحسب فهمنا لها:

أوّلاً: الزّيارة هي فرصة للتّعبير عن حبّنا للحسين عليه السلام، فنشعر ونحن في مكان استشهاده، بألم المصاب وحجم المعاناة، ثم نستحضر سبب كلّ هذا الحبّ الَّذي يجعل القلب يتألم، والعين تفيض دمعاً. بكلّ بساطةٍ، نحن نحبّ الحسين عليه السلام لأنَّه من آل بيت رسول الله، والله أوصانا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، والحسين باعتراف كلّ المسلمين، هو سيّد شباب أهل الجنّة، وهو من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ من أحبّ حسيناً**»[1].

ومسألة حبّ الحسين، أيّها الأحبّة، ليست معروضةً للنّقاش بين المسلمين، فحبّه جامع، والبكاء عليه بالنّسبة إلينا ليس معرضاً للخجل، فإن لم نبكِ مصاب الحسين، فمن نبكي إذاً؟

ثانياً: إنّنا نزور الحسين عليه السلام لنتربّى في أجلّ مدرسةٍ إيمانيَّةٍ وسياسيَّةٍ وفكريَّة،

(١) إحقاق الحق ج١١ ص٢٦٥ ـ ٢٧٩.

نهلت من المعين الصّافي لرسول الله ﷺ؛ مدرسة اقترنت فيها النّظريّة بالتّطبيق.

ومن نعم دروسها، أنها متوفّرة للجميع؛ نساءً ورجالاً، شباباً ويافعين، وأطفالاً وكهولاً، فهي ليست للنّخب، والكلّ يمكن أن ينتسب إليها، ويأخذ منها وفي أيّ وقت، فهي لا تقف عند حدود الزّمن، ولا تبهت، بل إنّ تَجدُّدَها يكمن في داخلها، من خصوبة شعاراتها وشخصيّاتها وأهدافها ومنطلقاتها...

ثالثاً: إنَّ زيارتنا للحسين عليه السلام، وخصوصاً زيارة الأربعين، أمرٌ قد تجاوز الأفراد، وصار سلوكاً جَمَعيّاً، وبهذا يمكننا أن نؤسِّس عليه ليكون من أسباب وحدتنا على مستوى المذهب، وليكون أيضاً سبباً لوحدتنا على المستوى الإسلاميّ العام، نوحِّد من خلاله شعاراتنا، حتّى يصبح مظهراً من مظاهر القوّة في مواجهة الاستكبار والظّلم والطّغيان..

أمّا النّقطة الأساس، فهي أداؤنا لهذه الزّيارة، وهذا ما ينبغي استحضاره بقوّة، وما يجب التأكيد عليه هو أن تكون نيّة الزائر من هذا اللّقاء، هي نيّة القربة إلى الله تعالى، نيّة الحصول على ثوابه، فالمكان الشّريف الّذي يحتضن الأجساد الطّاهرة، هو مكانٌ تُستجاب فيه الدّعوات، وتُغفر فيه الذّنوب، وتُنال فيه الشّفاعة من ربٍّ رحيمٍ ودود..

وقفة عند أشكال التّعبير

قد تتنوَّع أشكال التّعبير خلال هذه الزّيارات إلى مقام الحسين عليه السلام، وقد تختلف باختلاف البلدان والتنوّع الثّقافي والفكري، والنّظرة إلى أسلوب التّعامل مع الزّيارة، وقد تكون للعادات والتّقاليد المتراكمة والموجودة في كلّ بلدٍ انعكاسها في كلّ ذلك، وخصوصاً الآن، مع تطوّر وسائل الاتّصال، ونحن لا نقف موقفاً سلبيّاً من كلّ هذا التنوّع، ولكن، ما ينبغي تأكيده هنا، ونحن نحيي ذكرى الأربعين، عدّة أمور:

ـ **أوّلاً**: أن تكون كلّ التّعابير منسجمةً مع الأحكام الشّرعيّة، في حضرة مَنْ بذل دمه في سبيل حفظ شرع الله، لا يجوز أن تتبدّل الأحكام، نحلّل الحرام أو العكس، لا يجوز أن نبدّل الأحكام عنده وفي مقامه، وهو الّذي كان استشهاده صرخةً في وجه من استحلّ حرام الله وعطّل الحدود الشّرعيّة. ومن هنا، نعيد تأكيد ما نتبنّاه، بعدم جواز إيذاء أجسادنا إلا في مواقع الجهاد.

ـ **ثانياً**: الحرص على أن لا تخرج تعابيرُنا عن العقيدة الإسلاميّة الّتي تؤكّد طلب حاجاتنا من الله، فالله يقول: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي هذه الآية، يؤكّد الله أن لا واسطة بين العبد وربّه، علماً أنّها الآية الوحيدة بين ما يماثلها، الّتي يضع الله فيها السّؤال افتراضاً، ويتولّى الإجابة بنفسه، لإزالة أيّ حاجزٍ للخوف من عدم القدرة على التّواصل معه.

ـ أمر آخر نؤكّده لكلّ الزائرين، فلا بدّ من أن تنسجم ممارستنا مع القيم الّتي حرص الحسين على أن يؤكّدها، عندما قال لأخته زينب: «**إذا أنا متّ، فلا تخمشي عَليَّ وجهاً، ولا تشقّي عَليَّ جيباً، ولا تنادي بالويل والثّبور**»[1]. وأهمّ دروس كربلاء، أيّها الأحبّة، هو عدم الجزع، والتحلّي بالصّبر ورباطة الجأش، بعيداً عن الانفعال الّذي يُخرج الإنسان عن التّوازن، وكما قال أحد أعداء الحسين عليه السلام عنه: «ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتِل أهله وولده أربط جأشاً من الحسين».

ـ وأخيراً، نؤكّد أن نكون في شعاراتنا وممارساتنا وسلوكيّاتنا ممّن نحبّب النّاس بأهل البيت عليهم السلام، بحيث ننطلق من قاعدة: «بشّروا ولا تنفّروا»، فتصل شعاراته إلى كلّ النّاس، ويجدون في الحسين عليه السلام ملاذهم الفكريّ والرّوحيّ والثّوريّ، فلا نُبقيه محبوساً في زوايانا.

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ٢ ص ٩٤.

الالتزام بأخلاق الحسين عليه السلام

أيّها الأحبّة.. نحن مدعوّون إلى أن نعيش تجربة الحسين عليه السلام في ما سعى إليه، فأين نحن من الحسين عليه السلام في أخلاقه ووعيه ومواقفه؛ هل نزور الحسين عليه السلام ثم نؤيّد ظالماً، أو نزور الحسين ثم نأكل لحم بعضنا بعضاً غيبةً ونميمةً، هل نزور الحسين عليه السلام ونعصّب رؤوسنا بعصبات «يا لثارات الحسين»، ثم ننكفئ جانباً لا موقف لنا من القضايا المحقّة والباطلة، ونقول فلننجُ بأنفسنا...

ولا بدَّ من الإشارة إلى مسألة، وهي أنَّ الثّأر للحسين عليه السلام لا يكون ثأراً شخصيّاً أو مذهبيّاً من الَّذين لا يلتزمون إمامته، كما قد يعتقد البعض، بل إنّ لهذه العبارة معنى واحداً، هو ثأر لله من الظّلم والظّالمين، ثأرٌ من كلِّ حكمٍ جائرٍ يُحِلُّ حرام الله ويحرّم حلاله، ويعطّل الحكم ويستأثر بالفيء.

إنَّ مناسبة أربعين الحسين عليه السلام هي تجديد عهدٍ لتلك الدّماء الزّاكية على رمضاء كربلاء، تجديد ولاء لكلّ الَّذين ذرفوا الدّموع على قبور شهداء كربلاء، للإمام زين العابدين، لزينب، لكلِّ السّبايا، لكلّ الَّذين حفظوا هذه التّضحيات وأبقوها حيّةً حتّى وصلت إلينا.

تعالوا نأمرْ بالمعروف كما أمر الحسين، وننهَ عن المنكر كما نهى، ونُحقّ الحقّ كما أحقّه، ونُزهق الباطل كما أزهقه، ونقف في وجه الظّلم والطّغيان كما وقف رغم الآلام والمعاناة، وسنبقى نردِّد:

«السّلام عليك يا أبا عبد الله، وعلى الأرواح الَّتي حلَّت بفنائك، وأناخت برحلك، عليك منّي سلام الله ما بقيتُ وبقي اللّيل والنّهار، ولا جعله الله آخر العهد منّي لزيارتكم. أشهد أنَّك قد أقمت الصّلاة، وآتيت الزّكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصاً حتّى أتاك اليقين، فجزاك الله عنّا وعن الإسلام والمسلمين خيراً».

محتويات الكتاب

مقدمة ٥
كتاب عاشوراء ٧
ثورة الحسين عليه السلام: الصَّدمة الّتي أخرجت الأمَّة من نفق الصّنميَّة ١٤
ثورة الحسين عليه السلام كانت ضدَّ صمت الأمَّة وخذلان الرّسالة ٢٠
عاشوراء الحسين عليه السلام: التَّضحية بأبهى صورها ٢٥
عاشوراء لتحرير الإرادة ومقارعة الطغيان ٣١
كيف نكون الأوفياء للحسين عليه السلام؟! ٣٧
ذكرى عاشوراء: عبر ودلالات ٤٣
بالعودة إلى عاشوراء نستعيد معاني الرّحمة بين المسلمين ٤٩
عاشوراء ودروس التّوبة ٥٥
عاشوراء من دائرة الخصومة المذهبية إلى الدائرة الإسلامية والإنسانية ٦٢
نريد عاشوراء مشرقة إشراقة الإسلام ٦٨
إحياء عاشوراء: الواقع والتطلّعات ٧٤
زينب عليها السلام بطلة كربلاء ٨١
تطلّعات المرأة المسلمة في ضوء النهضة الحسينية ٨٨
المرأة النَّموذج في الملحمة الحسينيَّة ٩٦
زيارة الحسين عليه السلام تجديد عهد والتزام بأهداف ثورته ١٠٤